رواية
براءة
على قارعة ذنب
نور الايمان عباس

رواية

براءة على قَارِعة ذَنبْ

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

للكاتبة:

نور الإيمان عباس

اسم الرواية : براءة على قَارِعة ذَنبْ.
المؤلفة : نور الإيمان عباس.
مراجعة لغوية : الكاتبة الخنساء عباس الشهاب.
تصميم الغلاف:مينا ملاخي.
تنسيق : الكاتبة الخنساء عباس الشهاب.
نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

الإهداء :

إلى أهلي سندي و مصدر قوتي.

إلى توأم روحي وقلبي ودقاته النابضة إلى أختي الكاتبة خنساء عباس الشهاب.

إلى العين التي رعتني حبا، إلى الذين لا يملكون أحد، أهديهم روايتي هذه.

إلى أصدقائي بدون استثناء، إلى كلِّ من يشجعني دائما.

إلى نفسي التي تكابد وتصارع مرارة وسوداوية الحياة.

إلى من يجلسون الآن على مقاعد الانتظار في انتظار من يحبون ولم يأتوا.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

أُحبِكم بحجم السَّماء

دُمتمْ لي ذخرا و سَندًا

إلَى قطعة من قَلبِي وروحي

هناك على تلك الواجهة الثانية كنت أظنُّ أنَّ الإهداء سيكون سهلا لشخص مهم في حياتك يستغرق فقط بضع كَلماتٍ، لكن عندما بدأت الكتابة لم أجد الشيء الذي يعبر عمَّا يجول في جَوفِي فأحيانا حتَّى الكلمات لا تُوفِي حقَّ الإنسان، لربمَّا تلتقي أرواحنا وتتجسد على شاكلة حُروفْ.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

وَحْدها الأَقدارُ

تَعصِف بنا إلى حيث لا نَعلمْ

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

المقدمة :

أؤمن أنَّ هناك أمورا تحدث معنا ونحن نسير في مسار الحياة المستقيم، لكن قد يأتي شيء فيغير حياتنا في لحظة، يهدم كلَّ ما بنيناه في سنين، يهدم كلَّ ما كان بين أيدينا، يهدّم ذلك الشيء الجميل الذي كان مِثلَ ضوء مشتعل نلتمس منه النور من بعيد لكنَّه فجأة انطفئ.

أؤمن بأن القدر يلعب دوره في حياتنا ويغير دوران مَسارِنا و أؤمن أيضا بأن الحياة قاسية جدًّا ومرَّة بمرارة القهوة السوداء، كما أؤمن بأنَّ كل من حلف يمينا أنَّه لن يتغير سيتغير ويَخُون وعده، كما أُؤمِن بأنَّ موسم الخريف يأتي فجأة ليبعثر كلَّ ما بأيْدِينا .

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- خالد، خالد هاتفك يرن ....

- مَنِ المُتصِل يا نجلاء ؟.

- رقم المكتب، إنَّها سكرتيرتك ميساء اتَّصلت بك عدَّة مَراتٍ ....

هل أجيبها ؟.

- ردّي عليها و أخبريها أنَّني بالحمام.

- ألو، (صوت رقيق يردُّ إنَّها ميساء) نعم آنسة ميساء ....

- أهلا سيدة نجلاء ....

هل السيِّد خالد مَوجُود ؟.

- طبعا، موجود لكنَّه يستحم الآن و لا يستطيع الإجابة.

نور الإيمان عباس براءة على قارعة ذنب

- عفوا، لقد اتصلت في وقت غير مناسب.

- لا عادي ولكن ماذا تريدين منه، فقد أوكلني بنقل الكلام له ؟.

- حم، حم أردت فقط أن أبلغه بأنَّ لديه اجتماع مساء ....

- طبعا، هو يعرف هذا ولازال الوقت مبكرا على الاجتماع !.

نجلاء كانت تغار من ميساء باعتبارها سكرتيرة خالد منذ سنوات، كانت تحدِّثها بعدم مبالاة فلو عاد لها الأمر لوبَّختها لكنَّها تحترم خالد كثيرا، قاطعت شرودها ثم سألتها :

- هل يوجد أمر آخر أبلِّغه به ؟ لا شكرا قالتها ميساء و الكلمات تتلعثم بين شفتيها، أغلقت نجلاء الهاتف بعصبية.

- ماذا هناك يا نجلاء لماذا اتصلت ؟ (كان هذا صوت خالد قادما من الحمام).

- هل أنت قلق من الاتصال ؟ أم هناك أمر آخر ؟.

- لا يا نجلاء أتساءل فقط إذا كان هناك عمل أو اجتماع طارئ ؟.

- لا هي فقط كانت تريد أن تأكِّد معك موعد الاجتماع حتَّى لا تنسى !.

- ....

- يا الله!.

لقد نسيت فطور سامي بسبب الاتصال

- لماذا أنْتِ متوترة هكذا يا نجلاء ؟ (طوَّقها خالد بذراعيه و هو يمازحها، لكنَّ نجلاء لم تكن بمزاج جيِّد للضحك).

- لا لست متوترة، أنا بخير، بخير جدًّا، لكن هناك شيء ما يحيرني يا خالد !.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- ما هو ؟.

- أنا إلى حدِّ هذه اللَّحظة لم أستوعب لماذا تتصل ميساء بك و أنت بالبيت ؟.

- هي سكرتيرة و أنْتِ تعرفين طبيعة عملنا عزيزتي ففي كل مكان يتصلون على صاحب الشركة لكي يسألوه عما يكون ناقصا أو يخبرون المدير بما جدَّ من جديد يا حبيبتي.

- لكن يا خالد الآن أنت بالبيت و لست في العمل.

- أعرف لكن هذا عملها فشيء عادي أن تتصل بي لا تدخلي الشكوك الى رأسك (قالها و هو يسمح على شعرها كمحاولة لمداعبتها).

- لا ليست مجرَّد شكوك لكنني لا أرتاح لها قلبي يقول لي أنَّ في داخلها تضمر شيئا سيِّئا لا أعلم لماذا ؟ وليست مجرد شكوك كما تزعم أبدا ؟ أحيانا القلب أبصر يا حبيبي من العين و أنا امرأة وأعلم حيل النساء خصوصا تلك الأنواع التي تكون سكرتيرة المدير.

- هههههه أطلق خالد ضحكة عاليَّة مستفزة و قال متهكِّما :

- هل النساء خطيرات لهذه الدرجة ؟ ألِهذَا أَحببتُك ؟.

وكزته نجلاء بذراعها و هي تضحك :

- لا تضحكني أنا أتكلم بجدية.

- و أنا أيضا يا نجلاء، تأكدي من شيء واحد فقط، أن لا أحد سيخطف قلبي، أنْتِ وَحدكِ من يسكنه ويتربَّع على عَرشهِ.

- أنْتَ لا تدري كم أنَّ كلامك يريحني جدًّا يا خالد ؟.

تعرف أنَّك سندي فأنا ليس لديَّ أَحدٌ في هذا الدنيا بعد الله يوجد أنت، أنا أعتبرك أبا، أما، أخا أختا، صديقا أنْتَ كلُّ شيء بالنسبة لي.

نور الإيمان عجلس براءة على قارعة ذنب

- أعرف يا حبيبتي و أنْتِ أيضا حياتي ودنياي و الضَّوء الذي يشعُّ في حياتي.

- أوه لقد نسيت !.

- ماذا هناك ؟.

- سوف يأتي أهلك لزيارتنا اليوم كلمتني أختك وفاء منذ ساعتين.

- جيد ولكن لا استطيع رؤيتهم، فكما تعلمين لديَّ اجتماع، فاعتذري لهم عنِّي ....

سوف آتي متأخر.

- لماذا خالد ؟ ألا تستطيع إلغاء الاجتماع ؟.

- لا إنَّه مُهمٌ جدًّا يا حبيبتي، فالوفد قادم من إنجلترا من أجل لقائي لتوقيع شراكة بيننا.

- أهاااا، لكنِّي أريد أن تكون هنا معي لأنك تعرف أن أمَّك لا تحبني يا حبيبي.

- لا تقولي هذا يا نجلاء.

- إنَّها الحقيقة يا خالد ....

فهي تشعرني كأنَّني أخذتك من بين يديها، هي لا تدرك أنني أنا وأنْتَ نحب بعضنا وهذا الشيء أصبح يتعبني كثيرا لا أستطيع التأقلم معه أبدا.

- لا فقط لأنني الابن الوحيد لهم ، و مدلل لهذا السبب يا حبيبتي

- رغم انني انجبت لهم حفيد. حتى سامي يتساءل دائما في حيرة من أمره لماذا جدَّتي وعمَّاتي لا يحببنني لماذا يا أمّي؟ فقط عمتي وفاء هي تجلب لي الهدايا دائما و أشعر بحبها ومقربة منَّا كثيرا وتزورونا كلَّ فترة، هل رأيت يا خالد ؟ حتَّى ابننا أصبح يشعر بما أقول لك.

- أتركيه، هو لا يزال صغيرا و لا يعرف شيئا.

- لا أريد أن أخبره شيئا ربَّما يعتقدون أنَّني السبب و قمت بخطفك منهم أو تزوجتك قسرا ربما يفكرونني أنَّ سبب زواجي منك كان لأجل أموالك ؟.

نور الإيمان عباس بداوة على قارعة دنب

- إياكِ وقول هذا ثانية نجلاء و أشار لها و هو يقول :

أنا و أنْتِ أحببنا بعضنا حبًّا لا يعقبه أيُّ سَببٍ.

- أعرف هذا يا خالد (قالت كلامها و هي تخني رأسها).

- أنا تأخرت كثيرا على العمل ولديَّ اجتماع مهم سأرتدي ملابسي على عجل و أذهب الآن.

طبع على جبينها كالعادة قبلة حنونة، سمحة و ذهب، ثمَّ استدرك قائلا :

- نجلاء لا تتعبي نفسك في المطبخ، أطلبي طعاما جاهزا.

- لا سوف أقوم بإعداده بالبيت، أحسن بكثير من أكل الخارج الذي لا يوجد فيه أيَّة نكهة و هل تريد لأمِّك أن تقوم بإهانتي وتقول أنَّني لا أطعم ابنها أكلا صحيًّا لهذا أصبح هزيلا و نحيلا أو تتهمني بأنني لا أفقه في الطَّبخ وأشغال المنزل.

لا تنسى أيضا ستقوم وفاء بمساعدتي فهي ستأتي قبلهم بساعة، على فكرة أختك هذه طيِّبة جدًّا وتحبني أشعر أنَّها أكثر من شقيقة لي.

- و أمِّي أيضا تُحبكِ يا حبيبتي، لكنَّها لا تعرف كيف تعبِّر عن مشاعرها.

الآن سوف أذهب إلى العمل نلتقي مَساءً، انتبهي لنَفسكِ.

- أنت أيضا انتبه لنفسك عزيزي.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

راحت نجلاء تفكر في ماذا سوف تطبخ اليوم ؟ لعلَّها تكسب قلب أمه و أهل زوجها و لربَّما يذوب الجليد بينهم ويحبونها ويتقبلونها كابنة لهم و أم لحفيدهم الوحيد وليس فقط كنتهم (هكذا كانت تمنّي نفسها دائما).

في هذه الأثناء وبينما كانت نجلاء تعدُّ الأشياء و المقادير، دقَّ جرس البيت، مسحت يديها وتوجهت إلى الباب لكي تفتحه.

كانت هذه وفاء قد أتت باكرا لكي تساعد نجلاء في الطبخ فتحت الباب مرحبا حبيبتي نورتينا

- عزيزتي وفاء !.

طبعت على وجنتيها قبلتين و عانقتها عناقا حارًّا فقد كانتا أكثر من صديقتين بل أكثر من أختين

- هلا نجلاء كيف الحال ؟.

- أنا بخير و أنْتِ ؟.

نور الإيمان عباس براءة على قارعة ذنب

- أنا بخير، الحمد لله.

تفضلي أدخلي كنت بانتظاركِ على أحرٍّ من الجمر، البيت بيتك.

- أعرف هذا يا قلبي.

- لكن هذه المرَّة أنا فقد أطلتي غيَابكِ، العمل أصبح يَأخذكِ منّي كثيرا.

- أنا أعتذر منك يا نجلاء و لكنَّ ضغط العمل شديد لكن أعدك أنَّني سأعوضك في الأسبوع المقبل، أين سامي ؟.

- إنَّه نائم.

- ألم يذهب إلى المدرسة ؟.

- لا، فحرارته مرتفعة قليلا أعطيته الدواء ونام لم يطاوعني قلبي حتَّى أرسله إلى المدرسة وهو مريض بهذه الحالة.

- أوف، يا حبيبي، الله يشفيه و يعافيه.

- لا تقلقي سوف يتعافى خلال يوم أو يومين على أكثر حدٍّ، أصبحت مناعته قليلة يمرض كل فترة أيضا هذا الشتاء بارد الكلُّ يعاني من هذا و الإصابة بنزلة برد أمر طبيعي، أتعلمين إنَّه يحبك كثيرا ومتعلق فيك ودائما يسألني أين عمتي؟ لماذا لم تأتي ؟.

- كم جميل عندما أصبحت عمَّة !.

و أنا أحبه فقد غيَّر في داخلي الكثير أحسست بالمسؤولية مثلك ومثل خالد ضحكت قائلة :

- جعلتموني أكبر كم جميل أنِّي أصبحت عمَّة بهذا العمر الصغير ؟.

- يا حبيبتي أتمنَّى أن أراك مُتزوجةً و أمًّا أيضا لأنَّك حنونة جدًّا.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- يكفي أن أكون أمًّا لسامي أيضا وليس فقط عمَّة (ولوهلة تذكرت أنَّهما نسيتا الطبخ فقد أخذهما الحديث من موضوع إلى موضوع آخر).

- يجب أن نسرع يا وفاء، لكي نلحق الوقت.

لا تقلقي فأمي تستيقظ متأخرة كعادتها أمَّا أخواتي فهنَّ في العمل لن يَصلِوا الآن ولن يأتوا إلا بعد ساعات

- آمل ذلك، صحيح نسيت، أريد أن أَسألكِ يا وفاء ماذا يوجد بيننا ؟ لماذا أمُّك وشقيقتك لا يحبنني ؟.

- لازلت تفكرين في الموضوع، لا أظنُّ أنَّه يوجد سبب، يمكن مجرَّد سوء تفاهم.

- طبعا، أفكر فيه و باستمرار، اريد معرفة السبب مهما كان، دائما أتساءل في داخلي ماذا اقترفت يداي من خطأ ؟.

- يا نجلاء السبب ليس كما تظنين و لا علاقة لك فيه.

- لكنِّي أريد معرفته.

- الموضوع أنَّ أمّي كانت تريد تزويج خالد لابنة خالتي ولكنَّه اخبرها أنه وجد حبَّ حياته وأنَّك أنْتِ هي فتاة أحلامه وهو كان ضدَّ زواج الأقارب منذ نشأته لم يشأ الزواج لا من بنات خالته ولا بنات عمَّته، وافقت أمي بصعوبة بالغة في أوَّل الأمر ولكن ....

- و لكن ماذا يا وفاء ؟ أخبريني ....

- ....

- وفاء أرجوك أكملي، لماذا سكتِّي فجأة، أريد سماع السَّبب الذي يجعل أمَّك تكرهني لهذه الدرجة أريد أن أسقط جميع التساؤلات والأفكار التي تقتلني كلَّ يوم لسنوات ومنذ ارتباطي بخالد و أنا أفكر بالموضوع و الحيرة و التَّعجب يطوِّقاني وفوضى عارمة تجتاح داخلي حدَّ الشتات.

نكست وفاء رأسها و علامات الحزن و الحسرة باديَّة على ملامحها جليًّا حاولت الكلام، غمغمت ببضع كلمات ثمَّ ما لبثت أن نطقت و قالت :

- لأنكِ ترعرعت في الميتم، مجهولة الهوية وليس معروفا من هم أهلك ؟ عارضت على زَواجكِ بشدَّة أنْتِ وخالد، عندما وصلها الخبر صُعقتْ، بسبب هذا الموضوع فقد صدِّقيني لم تستطع أن تتقبلك يوما، خصوصا أنَّنا عائلة معروفة فقد كانت أمّي تخشى كلام النَّاس كثيرا.

حزنت نجلاء و اغرورقت مقلتاها بالدَّمع، أحسَّت بغصَّة داخلها تكاد تخنقها وكأنَّ شخصا وضع يداه على عنقها وبات يخنقها.

ربَّتت وفاء على كتفها بحنيَّة قائلة :

- لا تحزني يا حبيبتي.

- كيف لي أن لا أحزن ؟ والناس أصبحوا يقيمون غيرهم بسبب أمور كهذه.

- أنْتِ اردتِ معرفة السبب حاولت جاهدة عدم إخبارك، لكنَّك أصررت كثيرا و ألححت عليَّ فلم أشأ أن أكسرك فأخبرتك سبب كره أمّي لك، هي لا تعرفكِ جيّدا، لا تعرف طيّبة قلبك يا نجلاء، لكنَّها إذا عرفتك عن قرب سوف تحبك وتقتنع بك بالأخير، أعطها وقتا فالإنسان يلين مع الوقت سكتت نجلاء ثمَّ استرسلت قائلة :

- لكن ما ذنبي أنا ؟ إذ كنت لا أعرف من هم أبي و أمي، ما ذنبي إذا كنت كبرت و ترعرعت في دار الأيتام ؟ تربيت هناك لا أعرف حتَّى من هما والديَّ و لا أعرف الاسم الذي اختارته أمّي لي عند سماعها أولى صرخاتي، أم أنَّها تجاهلت الموضوع، فأمٌّ مثلها رمت فلذة كبدتها لدار الأيتام لا يمكن أن تكون قد فكَّرت بأمر كهذا، هل يجوز الحكم على إنسان بريء بالإعدام فقط لأنَّ والديه قرَّرا التخلي عنه ؟ لماذا يقاس الإنسان بشيء لا علاقة له فيه ؟

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

و لا يقاس بأخلاقه ؟ لماذا ؟.

كانت تسأل وفاء وتريد جوابا واحدا تسألها و الدموع تنحدر على وجنتيها المكتنزتين بدأت بالبكاء وكأن جرحها أُدمِي من جديد داخلها، بدأ بالنزيف، ذلك الجرح الذي لطالما كانت تداريه لكي لا تتذكر الماضي لكن سرعان ما فُتِح الجرح الذي ظنَّت أنَّه اندمل منذ زمن من هول ما سمعته.

ضمَّتها وفاء إلى حضنها ومسحت على رأسها بحنوٍّ فقد شعرت بالذنب لأنَّها أخبرتها بالحقيقة و قالت لها بأسى و لوعة :

- يا نجلاء يكفي أنِّي أنا و خالد مَعكِ ونحبك جدا ونقف بالقرب منْكِ دائما ونُساندكِ ولديك أيضا طفل جميل جدًّا، الكلُّ يحسدك على عيشتك هذه وعلى خالد الذي تحدَّى الجميع لأجلِ حبِّكم و لم يبالي لا بحسبك ولا بأصلك، يكفيك خالد الذي أحبك لأخلاقكِ، أحبك لنَفسكِ و روحك الجميلة

التي لا أحد يمتلكها وذَكائكِ و فطنتك الحادَّة أنْتِ فتاة ذكية جدا ولا أحد ينكر هذا، كانت نجلاء تنصت لها في هدوء.

- الآن عرفت سبب اخفاء خالد الموضوع، لم يخبرني فهو لم يكن يردني أن أعرف سبب نبذ أمِّه وكرهها لي.

- انسي الموضوع و دعينا نكمل عملنا لم يتبقى إلاَّ القليل من الوقت ليصل أهلي.

- أتعرفين يا وفاء ؟.

- ماذا هناك يا حبي ؟

- أنا محظوظة بوجودك، لأنكِ أكثر من أخت لي، أنت وخالد كلُّ دنيتي.

ابتسمت وفاء وقالت بصوت رقيق :

نور الإيمان مجلس براءة على قارعة ذنب

- أنْتِ هي سبب سعادتنا فكوني سعيدة لأجلنا فقط ولا تحزني أبدا .... لأنَّ كلام الناس لا يفيد أبدا فهو لا يقدم ولا يأخر، فقط يعيق سير سعادتك باتجاهها الصحيح ويكدِّر فرحتك أنْتِ وخالد وسامي انسي كل شيء ...

- مَعكِ حق يا وفاء برأيك هل نقوم بطبخ دجاج مع أَرزْ ؟ أم الباميا ؟

أم ورق عنب ؟ أم مرقا باللَّحم أم طبقا آخر ؟.

- يا سلام لنعدَّ دجاجا مع الأرز، فأنا أحب الدجاج المشوي كثيرا كما تَعلمينْ.

- سنتساعد يدا بيد وننهي بسرعة الطبخ قبل قدومهم.

- هل سيأتي خالد إلى العشاء ؟.

- لا فهو لديه اجتماع مهم، لكن ربَّما يأتي بعد العشاء.

****

في هذه الأثناء وصل خالد المكتب دخل مكتبه ونادى سكرتيرته ميساء :

- أعدِّي لي كوبا من القهوة السَّادة.

- أوك هل لديك طلب آخر أستاذ خالد؟.

- هل بإمكاني طَلبُ شيء منْكِ يا ميساء ؟.

- طبعا، تفضل يا أستاذ خالد.

- لا تتصلي بي و أنا بمنزلي، الاتصال على هاتفي المحمول يكون من السَّاعة 8 إلى السَّاعة 5 مساءا عندما ينتهي دوام عملي لا أريد أيَّ اتصالات بخصوص العمل لأنني عندما أكون في البيت أريد أن أرتاح فقط.

سكتت ميساء و زمَّت شفتيها وردَّت عليه بحنق و توتر شديدين :

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- هل سببت لك مشكلة في اتصالي أمس ؟.

- لا لم يحصل شيء فقط أردت أن أُطلعكِ على هذا الكلام.

أحسَّت ميساء بالإحراج داخلها فهي كانت معجبة كثيرا بخالد نظرت إليه مكسورة الخاطر، إحساس نجلاء كان في محلِّه، عندما أخبرته أنَّها تشك فيها.

ثمَّ أنهت كلامها قائلة :

- أَمرُك يا سيدي، سأعدُّ لك القهوة كما تشربها بالعادة و آتيك بها في غضون دقائق (كانت تحفظ كل شيء يخص خالد) و أوافيك ببرنامج العمل لليوم.

- ميساء ....

التفتت و السَّعادة تغمرها :

- ماذا هناك يا أستاذ خالد ؟

- شكرا لتفهمك.

- العفو.

- سوف أدخل الاجتماع الآن، لا تربطيني بأيّ اتصال لأن الوفد ينتظرني في قاعة الاجتماعات وأجلِّي كل شيء لديَّ (كان الوفد قادما من إنجلترا و يتكوَّن من 6 أفراد بين محاسبين و مدققين ومهندسين و مشرفين على المشروع يريدون إنشاء شراكة مع بلد عربي و قد وقع الاختيار على شركة خالد و المشروع سيدرُّ أموالا كثيرة عليه كما سيكسبه خبرة جَدِيدة).

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

في هذه الأثناء انتهت وفاء ونجلاء من إعداد الطعام كان كلُّ شيء يبدو جميلا، المائدة مزيَّنة ومملوءة بكلِّ ما لذَّ و طاب من المأكولات والمقبلات والفواكه و الأَطباقِ الرئيسيَّة.

و فجأة دقَّ الجرس، كان أهل خالد قد وصلوا لتوِّهم ....

أتت أمُّه و أخته سامية وفادية، خالد لم يكن لديه أخ غير البنات فهو وحيد أمِّه يتوسَّط 3 بنات، جميعهنَّ كنَّ لا يحببن نجلاء عدا وفاء، يكرهنها أيضا مثل أمِّهم وكأنَّ خالد حينما تزوجها اقترف أكبر ذنب، دخلوا فرحبت بهم بسرور، كانت نجلاء تملك قلبا جميلا مسالما دافئا يحب الجميع ولا يعرف كيف يكْره أيَّ أحد ؟.

ألقوا السَّلام بلباقة :

- مساء الورد.

ردَّت عليهم نجلاء مرحبة بهم بابتسامة عريضة من القلب لكنَّ وجوههم كانت عابسة وكأنهم قادمين لمأتم و ليس منزل ابنهم.

نور الايمان عباس براءة على قارعه ذنب

- أشرق البيت بقدومكم، حبيباتي كيف حالكم ؟ (كانت نجلاء تبسط لهم كفوف الرَّاحة و تعاملهم بمنتهى الأدب و اللُّطف فما عهدت غير ذلك).

- شكرا لك، نحن بخير.

تفضلوا ادخلوا إلى الصَّالة، هل تشربون عصيرا باردا قبل الأَكل فالجوُّ حارٌّ في الخارج ؟.

- لا داعي لذلك، سوف ننتظر الأَكل (قلن بتملُّق).

جلسن ينظرن إليها بنظرة تعالي، حقد، كره وبغض، أَتتْ نجلاء على مَهلٍ قائلة :

- يمكننا البدء بالأَكل لأنَّ خالد لن يأتي فهو لديه اجتماع مهم سوف يحاول أن ينهيه ويعود إلى البيت بسرعة مَساءً.

نظرن إليها نظرة ازدراء و نطقت الأم قائلة :

- أكيد لا يأتي فهو يعمل كالآلة من أجل إراحتكم أنت و ابنك فهو لا يهنأ أبدا.

ردَّت نجلاء بحزن :

- و لكن يا خالتي ما ذَنْبي أنا ؟ لقد طلبت منه أن يلغيه أو يؤجِّله ليوم آخر لكنَّه رفض مبرِّرا رفضه أنَّ هذا الاجتماع مهم لأنَّ الوفد قادم من إنجلترا لديه اجتماع مهم، لذلك في جميع الأحيان تجدينه مشغولا، حتَّى أنا و ابنه أصبحنا لا نراه كثيرا.

- لا أعلم ماذا فَعلتِ لكي تأخذي عقله وقلبه وتسحريه، جَعلتهِ يفكر فقط فيك، لم يعد يسأل حتَّى عن عائلته هو لم يكن يتصرَّف هكذا قبل أن يتعرف عليْكِ (قالت كلامها و الحنق واضح بعينيها).

- لماذا ؟ ماذا فعلت ؟ بالعكس أنا أحاول مساعدته وتخفيف ضغطه حتَّى أشغال البيت أقوم بها وحدي، حتَّى لا أشغله أكثر، لماذا تظلمينني قبل أن تعرفي السبب فأنا أعتبركم مثل عائلتي وأكثر.

تمتمت داخلها و ابتسمت ابتسامة ساخرة تنمُّ عن الكره و استرسلت قائلة :

- و هل تملكين أنتِ عائلة بالأصل؟ و تقومين بمقارنتها معنا ؟.

كلامها كان جارحا جدًّا ومليئا بالحقد، كان كلامها سمًّا تقذف به من ثغرها، تحجَّرت عيني نجلاء بالدُّموع وركضت إلى غرفتها مسرعة تداري دموعها حتَّى لا تسقط أمامهم و تتلذَّذ أمُّ خالد بضعفها فهي لم تتحمَّل سماع المزيد من الكلام الجارح و التلميحات التي قيلت بحقها و لم تكن قادرة على الردِّ فهي تحترم خالتها كثيرا.

توجَّهت إلى غرفتها و هي تبكي بحرقة و ألم شديدين، تبكي الموقف الصَّعب الذي وُضِعت فيه تبكي و تقول :

- لأنَّني تربَّيت بدار الأيتام هذا لا يعني أنَّني لست أملك عائلة مثلي مثل الجميع.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

حتى ابنها استغرب من نوبة البكاء التي أصابتها فسألها بهلع :

- ماذا بك يا أمّي ؟ أجيبيني ؟.

قامت وفاء بإخراجه من الغرفة و أخذته إلى غرفة نومه لكي تشغله بالألعاب، لم تكن تريده أن يرى أمَّه بهذه الحالة منهارة، ضعيفة، هشَّة، مكسورة، عاجزة، مستسلمة، تبكي و تنتحب حاولت وفاء الولوج لغرفة ابن أخيها لمحادثة نجلاء لكنَّها تردَّدت كثيرا و خافت أن تزيد الطِّين بلَّة فانسحبت لحين أن تتأكد أنَّها هدأت تماما، و توجهت إلى الصالون نحو أمها و أخواتها و سألتها و هي منكسرة :

- لماذا تفعلين هكذا يا أمّي ؟ لماذا ؟.

ما ذنب نجلاء أنَّها ترعرعت في المَيتمْ، هي لم تختر هذا بل أُجبِرت على هذا الوَاقعِ المُرْ، هكذا فُرِض عليها هي لم تكن مخيرة، كلَّما رأيتها فتحتي جراحها من جديد وكأنه ينقصها هذا الأمر، لو تحبين أخي خالد ما كنتِ تصرفت هكذا ....

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

رمقتها أمُّها بنظرة يتطاير منها الشَّرر و قالت منفعلة :

- أأنْتِ عمياء يا وفاء ؟ أم أنَّها سَحرتكِ أيضا كَأخيكِ خالد ؟.

هي لم تتزوج خالد إلاَّ لكي تخرج من المستنقع الذي كانت تعيش فيه، ابني خالد هو من أعطاها الكنية والقيمة التي هي عليها الآن، أعطاها حتَّى الهيبة هو من جعلها امرأة في نظر المجتمع ، هي لم تكن تحلم بهذه العيشة التي كلُّها رفاهية، حتَّى في الأحلام ما كادت تنهي جملتها حتَّى سمعوا وقع أقدام و صوت الباب يفتح دهش الجميع ....

أتى خالد فجأة فلم يتخيل أحد أنَّه سوف يعود مبكرا، فعكس ما قالته نجلاء قد أنهى اجتماعه باكرا ورجع بنيَّة أن يتجمع الكلُّ على نفس المائدة عند دخوله خيم الصَّمت و الحيرة على جميع المتواجدين

و لاذوا بالسكوت فلم يتوقَّع أحدهم مجيئه و أوَّلهم أمه التي جمدت مكانها كانت تخشى أن يتفقَّد فيجدها تبكي ويعرف أنَّها السبب في ذلك ....

- مساء الخير ما هذا الصَّمت الذي خيَّم على وجوهكم عند رؤيتي ؟.

رحبت به أمُّه قائلة :

- أهلا و سهلا فيك يا خالد، لا يوجد أيُّ شيء يا ابني فقط اشتقت لك.

- و أنا أيضا يا أمِّي، اشتقت لكم كثيرا لذا أنهيت عملي باكرا حتَّى آتي لرؤيتكم، بالمناسبة أين هي نجلاء لم أرها معكم ؟.

لم يجبه أحد فاستغرب ذهب إلى غرفتها يتفقدها و عندما فتح الباب تفاجأ بأن رآها تبكي بشدَّة فصاح بها :

- ماذا بكِ يا نجلاء ؟ ماذا حصل ؟.

- لا شيء يا حبيبي لقد تذكرت موقفا من الماضي فنزلت دموعي (قالت كلماتها المقتضبة تلك و هي تجفِّف دموعها).

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

رفع وجهها بيديه غير مصدِّق لما تقول :

- منذ متى كنَّا نخبئ على بعضنا صغار الأمور و ما يحصل يا حبيبتي ؟.

جاءت وفاء خلفه و أشارت إليه بيدها و أومأت برأسها إلى جهة أمِّها و نادته إلى الغرفة المجاورة حتَّى لا يسمع حديثهم أحد، ففهم أنَّ أمَّه قد فعلت شيئا سيِّئا لذا تبعها.

- ماذا، ماذا جرى ؟ لماذا لم تتصلي بي وتخبريني بما حدث ؟.

لكنت قطعت اجتماعي و جئت راكضا (صرخ خالد عاليًا و هو متفاجئ ممَّا حدث) وتوجه نحو غرفة الجلوس مهرولا :

- كيف لكِ يا أمِّي فعل كلِّ هذا بنجلاء ؟ ما سرُّ هذا الحقد الدفين الذي تكنينه لها ؟.

وهي تحبكم جميعا و تحترمكم و تحرص على إرضائكم بشَّتى الوسائل و الطرق، أنا لا أحتاج معرفة من أين هي ؟ و لا من أين جاءت ؟ أنا لا يهمني كلُّ هذه التفاهات و التُّرهات، لماذا تتمتعين بهذا القلب قاسي ؟ و تتلذذين بتعذيبها و جرحها كلَّما سنحت لك الفرصة ؟ من المفترض أن تَكُوني سعيدة لأنني سعيد معها ومع ابني، أنجبت لَكِ حفيدا وسيما، جعلتني أميرا و سَعيدًا بحياتي ألا يهمك كلُّ هذا، سكتت ثمَّ تجرَّأت و قالت له :

- ليست من مستوانا يا ابني، صدِّقني، فجميع من نعرفهم يتحدثون عنها، لم يبقى أحد سواء من القريب أو البعيد فكلُّهم يتكلَّمون عنها بالسُّوء.

- لا يهمني رأي أيِّ أحد، بعد كل تلك السنوات ألم تستوعبي هذا ؟ أنا أحببتها لكونها نجلاء فقط لا لشيء آخر لم يعنني قطُّ ابنة من هي ؟ رأيت فيها تلك البنت الحنونة، الضعيفة، الطيبة، المتسامحة، الودودة، الخلوقة لا يهمني الناس تهمني من أحبها وتحبني ولا نريد شيئا من أحد ولا أريد لأحد أن يتدخل بيننا، بعد كلِّ زيارة يتكرَّر نفس الشيء تتعب و تتأزَّم نفسية نجلاء كثيرا تحسُّ دائما بالنقص من هذا الموضوع و الوحدة و تنعزل أكثر فأكثر، أصبح هذا الوضع يؤثر حتَّى على حياتنا الخاصَّة و لا تعرف كيف تراضيك ؟ و تعمل جاهدة لإسعادك، إذا كانت غَايتكِ تلبية دعوتها لكي تزعجيها وتفتحي جراحها أرجوكم لا تأتوا و أنا سآتي لرُؤيتكِ باستمرار يا أمِّي ....

- و تريدني أن لا آتي إلى بيتك، لماذا ؟ لأجل زوجتك تريد أن تطردني، أهذا هو بر الوالدين ؟ هل سحرتك هذه الفتاة ؟ و لم تعد تفكر في شيء غيرها، أفق إنَّك تغرق يوما بعد يوم، أفق على نفسك، فلقد تغيرت كثيرا منذ عرفتها و ها أنت تطرد أمَّك.

- أنا لا أطردك يا أمِّي، لكن إذا كان الحلُّ في تخفيف هذا التوتر كلِّه ابتعادكم عن بعض فليكن هذا.

- ....

- أنْتِ تجرحينها باستمرار و نجلاء حساسة جدًّا بهذا الموضوع.

- هيَّا يا بنات لنذهب فأخوكم لم يعد يريدنا في بَيتهْ.

نور الايمان عباس براهمة على قارعة تنب

- أوف يا الله رأسي سينفجر، ما كلُّ هذا الذي يحصل معي ؟ العمل من جهة و أنتم من جهة والمشاكل من جهة أخرى.

غادر يومها الجميع ودَّعتهم وفاء وقبّلت نجلاء و أوصتها كثيرا ألاَّ تنزعج فطبع أمِّها هكذا فهو ابنها المدلَّل والوحيد و هي تحبه كثيرا ....

بعد مغادرتهم توجَّه خالد إلى غرفة نجلاء وحاول يهدِّأ من روعها و حاول أيضا أن يخبرها أنَّ أمَّه تحبها لكن لم تتقبلها بعد وتحتاج إلى الوقت الكافي و أنَّ قلبها طيِّب، لكن لا تعرف كيف تعبِّر عن حبها حتَّى له ؟.

لقد حفظت نجلاء هذ الأسطوانة التي لطالما ردَّدها على مسامعها و بادرته متسائلة :

- خالد ...

- ها نجلاء ....

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- أريد أن أخبرك شيئا، لكن لا تغضب منِّي ؟.

- تفضلي حبيبتي و أعدك أنَّني لن أغضب.

- اليوم أخبرتني وفاء سبب كرهْ أمِّك لي.

قال مستغربا :

- ما هو ؟

- لم تكن تريدك أن تتزوج بفتاة من دار الأيتام و الأدهى من هذا، كانت تريدك أن ترتبط بإحدى الفتيات من أقاربك، لما لم تخبرني هذا الكلام ؟ كنت تخفي عني هذا الموضوع وتتحجَّج بكثير من الحجج لكي لا تكسرني.

- صدقيني أنَّني لم أكن أريد إزعاجكِ بموضوع تافه كهذا.

- لكنَّ عيشتنا أصبحت يوما بعد يوم جحيما لا يطاق بسبب هذا الموضوع.

- انْسِي يا نجلاء، فأنا لا يهمني رأي أحد، نحن تزوجنا عن حب و سنعيش حياتنا رغما عنهم لا يهمني كلام الناس أرميه ورائي لأننا أكبر من هذا كلِّه ولدينا مشاغل أكبر في حياتنا.

كان سامي واقفا عند الباب يسترق السَّمع لحديث أبيه و أمه دون أن يقصد فقد تعالت الأصوات اليوم كثيرا لكنَّه لم يستوعب شيئا ممَّا قالوا لصغر سنِّه، فهو لم يتعدَّ الستَّ سنوات لم يخزِّن في رأسه سوى بعض الكلمات التي كانت مترامية هنا وهناك، مجهولة الهوية، تربَّت في دار الأيتام، تخلَّى عنها أهلها، يتيمة وقد كانت مصطلحات صعبة على غرار القصص التي كانت ترويها له أمُّه.

مسح لها دموعها وحضنها ونامت نجلاء كطفل الذي يبكي ويغفو من شدة تعبه من البكاء ....

كانت كالأطفال ذكية جدا ولكن كل من يرى عيونها يحس انها تفقد شيئا ما عيناها يترجمان كل شيء ....

نور الايمان عباس برواية على قارعة ذنب

و انقضت تلك اللَّيلة السَّوداء الطَّويلة وأخيرا حلَّ الصباح.

****

استيقظت نجلاء مبكرة كعادتها لتعد الفطور لابنها ولخالد تدهشني كثيرا فوضويتها في الحياة وكمية المشاعر التي تملكها والحنية التي داخلها تدهشني كثيرا طاقتها و مقاومتها لكلِّ ما يحدث، تجاهلت ما حدث بالأمس و كأنَّ شيئا لم يكن.

استيقظ خالد و هو يتثاءب قائلا بصوت نعس :

- صباح الخير يا أحلى و أجمل وردة في حياتي.

- صباح الحب لأوسم حبيب.

- كيف حالكِ اليوم ؟.

- أنا بخير ما دُمتَ أنْتَ موجودا بحياتي و ابني فأنا أزهر بكما و أتفتَّح لأنشر عبقي و أريجي ....

قال خالد متذكِّرا :

- اليوم ليس لديَّ اجتماع ولا أيُّ عمل مهم لقد أتممت بالأمس جميع الأوراق، اعتبريني في عطلة، اليوم لكما فقط، سوف أخرج أنا و أنْتِ و سامي لنتنزَّه و نذهب إلى مدينة الملاهي.

نور الإيمان عباس يراعه على قارعة ذنب

- أنا بخير يا خالد أعلم أنَّك تقلق عليَّ لكن لا تشغل بالك واذهب لكي تزاول عملك، أتعلم ؟ أنا محظوظة كثيرا لأنَّك دخلت حياتي وجدتك أبي و سندي، فقد جئت لتعوِّضني عن كلِّ الحرمان الذي عشته وكأن الله وهبك لي كهدية من السَّماء، قدِّر لي أن أجدك لكي تكون مَلاذً لي وروحي والزوج الحنون والعطوف مهما وصفتك فهذا يكون قليلا جدًّا بحقِّك.

- هذا واجبي يا نجلاء فأنْتِ زهرة اللوتس خاصتي، أنْتِ وسامي كل حياتي ودنيتي، أنجبت لي أميرا صغيرا يُشبهكِ و يحمل الكثير من حبنا كلَّما كبر أكثر كلَّما كبر حبنا معه أكثر ويزهر، أنْتِ غصني الذي أتكأ عليه و مرفأ الأمان، أنْتِ حبيبتي، فلولاك ما كنت أنا.

- آه لو يستطيع الإنسان رؤية ما في القلب آه، لكان كلُّ واحد منَّا يعرف قدره وقيمته عند الآخر لاندهش العالم من حبي لك، أحبك بحجم السَّماء و بحجم حب الإثم للغفران، بحجم الندم الذي تقترفه الفتاة عندما تنجب طفلا بريئا وترميه فهل يكفيك هذا يا خالد ؟.

- إنَّ حُبكِ هو من يعطيني دفعة الأمل يا حبيبتي.

اذهبي وقومي بإيقاظ سامي لكي نوصله اليوم إلى المدرسة وبعدها نتغدى مع بعضنا يجب أن نخصص اليوم لنا فقط فنحن لم نخرج منذ مدَّة كنت مشغولا كثيرا عنكم بالعمل تعرفين ظُروفِي.

- أعرف يا خالد و أنا لا ألومك على هذا أبدا و أقدِّر موقفك وتعبك علينا وعلى حلال أخواتك وأمك وفجأة دخل سامي عليهم حملته أمُّه و هي تحادثه :

- استيقظت لوحدك ليس بالعادة.

- استيقظت على أصواتكم.

نور الإيمان عباس براعة على قارعة ذنب

- يا ملاكي الجميل كنت أتحدث مع أبيك الظاهر أن أصواتنا كانت عاليَّة لذا أزعجنا الأمير الصَّغير ولم يكمل نومته، تعال لكي تتناول فطورك سأرتدي ثيابي.

كان سامي شاردا يفكر بكلام جدته ولماذا قالت كلاما غريبا لأمِّه ؟.

كيف لأمِّه أن تقول له أنَّ أهلها موجودين لكنَّهم بعيدون عنهم وهي لا تمتلك عائلة ؟ هل يا ترى كذبت عليَّ لأنني صغير ولا أعرف شيئا أم أنَّ جدتي كانت كاذبة تكره أمِّي فتؤلف القصص عنها كان هو صغيرا لكنه أصبح يدرك القليل ممَّا يدور حوله.

- ماذا بِكَ يا بنيَّ ؟ لما أنت شارد و بما تفكِّر ؟.

- لا يوجد شيء يا أبي.

اشرب حليبك بسرعة ستتأخر عن مدرستك (ناداه والده).

- هيَّا بنا لنقوم بغسل أسنانك و أساعدك حتَّى ترتدي ثيابك لأنَّ أمَّك مشغولة بتحضير نفسها.

حضرت نجلاء نفسها لبست فستانا بنفسجيًّا بأكمام طويلة، يصل إلى أسفل الرُّكبة، كان هذا لونها المفضل و زيَّنت رقبتها بعقد لؤلؤ فاتن،، وزيَّنت معصمها الناعمَّة بإسواره بسيطة ملائمة لعقدها،

و انتعلت كعبا أسود عالي، وضعت القليل من المكياج، و رشَّت عطرها، ألقت نظرة أخيرة على نفسها في المرآة لتضع اللَّمسات الأخيرة و حملت حقيبتها السَّوداء ....

كانت تبدو جميلة جدًّا فاتنة حدَّ الدَّهشة، وقفت قبالة خالد فلم تصدق عينيه ما رأت سحرته بمجرد أن حدَّقت في عينيها و قال و هو مندهش ممَّا رأى :

- واو، واو إنَّك تبدين في غاية الرَّوعة يا نجلاء، سبحان من صوَّرك في أبهى طلَّة، تسرِّين عيون الناظر إلَيكِ، أخاف أن أحسد نفسي عَليكِ.

خجلت، شعرت بدفء حبهما يجتاحها وكأنها تستجمع شريط ذكرياتهما لحظة تعارفها عليه صدفة بالكلية.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

ابتسمت وقالت له :

- لا تعبث بذاكرتي ....

لأنَّ اليوم بأكمله لن يكفينا لتذكر موسم حُبِنا.

- ضحك هو أيضا، مَعكِ حق أين سامي ؟.

- إنَّه في غرفته يستعدُّ ....

- سامي، سامي هيَّا بنا نذهب كي لا نتأخر على مدرستك.

- تعال يا سامي نحن ذاهبين أمسكت يده برفق، كان منظرهم جميلا، عائلة صغيرة يملأها كلُّ الحب و الاحترام.

أوصل خالد سامي بطريقه وبعدها سألته نجلاء قائلة :

- إلى أين سنذهب ؟ يا خالد ....

- ....

- ما بالك لا تسمعني ؟ أين شردت ؟.

استدار خالد متغزِّلا بها :

- ياه، ما أعذب اسمي بين شَفتيكِ وكأنَّ اسمي لا يصبح جميلا و له معنى آخر إلاَّ بنُطقكِ له، يشبه النَّغمة التي تترنم بين بصَوتكِ، هل أُخبركِ سرًّا يا نجلاء ؟.

أحسُّ بإحساس، كأنَّه أوَّل يوم ذهبت فيه مَعكِ بموعد قبل سنوات ....

أتتذكرين ذلك اليوم ؟.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

****

منْكِ الجمال ومن حُسنكِ يَغارُ الوَردُ يا حبيبتي

وحدي تحت ظلمة اللَّيل أُغنيكِ

وحدي أُناديكِ من تحت شجر الشَجنْ

وَحدكِ أنْتِ غربتي ألتجأ إلَيكِ كلَّما باغتني الحنين للوطن

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

كلماتك جميلة جدا وكأنَّها لحن لأغنية ألَّفها عاشق ولهان فور وقوعه بالحب، خائفة أن أحسد نفسي ولا أريد الاستيقاظ من هذا الحلم.

- ليس بحلم يا نجلاء إنَّه واقعنا وقدرنا أن نعيشه بكلِّ فصوله، يجب أن نعيش الحب على أكمل وجه فالحب نعمة كبيرة دخلت حياتنا، أنا لم أعرف هذا الشعور إلاَّ عندما وقعت عينيَّ بسحر عينيك فَفُتنت بك.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

وصلا إلى المطعم لقد كان نفس المكان الذي كان يتردَّدان إليه في فترة حبهما الأولى، تفاجأت نجلاء وأحسَّت أنَّ اليوم هو ميلاد حبهما، أمَّا خالد فقد جهزَّ كلَّ شيء حتَّى يكون يومهما استثنائيًّا، لقد كان هذا المطعم يحمل ذكريات كثيرة لهما ففيه كانت أوَّل نظرة إعجاب، أوَّل لقاء، أوَّل ضحكة، أوَّل دمعة تسقط، أوَّل اعتراف بالحب، أوَّل خلاف لهما، فيه حلَّت جميع مشاكلهما، فيه أحبا بعضهما البعض وفيه أيضا طلب خالد منها الزواج، هذا المطعم هو عش لحبهما وليس أيَّ مطعم عادي.

قالت بسعادة :

- اليوم جعلتني أشعر بفرحة عامرة جدًّا لا توصف أبدا، لطالما كان قلبك ملاذي ووطني، رَغبْت بشدَّة العيش داخله وألاَّ أغادره أبدا.

- كُنتِ دائما أنْتِ زهرة اللوتس خاصتي، حبك كان مثل مَاءٍ يسقي تلك الزهرة، كلَّ يوم أهتم فيها ولا أدعها تذبل حتَّى صار قلبي حديقة زهور جميلة.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- .....

قطع حديثهما نادل المطعم آتيا لأخذ طلباتهما :

- تفضلا يا سيد خالد لقد حجزت لك طويلة كما رغبت، هل أعجبتك ؟.

كانت الطاولة مزيَّنة على الآخر، مضاءة كلُّها بالشموع الحمراء الرائعة لم تصدِّق نجلاء المفاجأة و كأنَّها بحلم، كانت تحادث نفسها كيف ؟ و متى رتَّب زوجها لكلِّ هذا ؟ و لكن ليس بالغريب عليها فقد عهدت منه مفاجآت أجمل.

تفوَّه النَّادل ببضع كلمات يبارك و يهنئهما بشيء :

- كلَّ عام و أنتم بخير وحبكم يكبر، لولهة تذكرت يوم زواجهم و يوم وقوعهم بحب بعض كان نفس التاريخ، لامت نفسها بحزن :

- أيعقل أن أنسى يوما كهذا ؟ ولطالما كنت أنا سباقة لتذكره لكن لا أدري ماذا حصل لي بهاذين اليومين الأخيرين.

- لا عَليكِ يا حبيبتي فأنا أعلم أنَّ ضغوط البيت كلُّها علَيكِ ولا أستطيع تقديم المساعدة لأنني في هذه الفترة منشغل جدًّا.

أمسكت يده و السَّعادة تملأ قلبها و تغمرها قائلة له بصوت رقيق و حنون :

- لا علْيكَ .....

يكفي أنَّك تذكرت يوم زواجنا وهذه بالنسبة لي أكبر هدية، أنْتَ الذي جئت كهبة ربانية لتغسل رُوحِي وتطهِّرها.

- لا تقولي هذا يكفي أن نهرم معا يدا بيد في بيتنا ومع ابننا سامي.

شعَّت عينيها ببريق و لمعت بالدُّموع، لم تكن تعرف كيف تصف شعورها ؟ فالسَّعادة غالبا شعور صامت لا يترجم بالكلمات خجلت كثيرا و لم تستطع الردَّ عليه.

نور الإيمان عباس يداوه على قارعة ذنب

- الطَّعام سوف يبرد يجب أن نأكل، ثمَّ عقَّب قائلا :

- خصوصا السَّمك فهو يأكل ساخنا وبعد ذلك نطلب حلويات أعرف مدى حبك لها أنا في بعض الأحيان أغار منها، ضحكت بخجل فواصل مسترسلا :

- لكن لا بأس فأنْتِ الحلوى المفضَّلة إلى قلبي.

- لكنَّك لا تعلم أنَّك أحب إلى قلبي من كلِّ شيء في هذه الدنيا يا خالد، لا يمكنني أن أُحِب أحدا أكثر منك.

- حم، حم قلبي الصَّغير لا يتحمل، ما كلُّ هذه الكلمات، أنت تدلِّليني كثيرا يا نجلاء، أتعرفين ما هي أمنيتي ؟.

- ماهي يا خالد ؟.

- أريد أن تكون لي طفلة تشبهك بكل محاسنك الفاتنة هذه، برقَّتك سوف تكون حورية وليس طفلة، أنا متأكد من ذلك.

- أمممممم، هل ستحبّها أكثر مني ؟ ثمَّ عقدت ذراعيها لصدرها و مطَّت شفتيها و واصلت قائلة : من الآن بدأت أشعر بالغيرة منها.

- لا سأحب كلتاكما بنفس المقدار، أريدها أن تكون أيضا سندا لأخيها سامي فهو قد كبر وبات يحتاج لأخت أو أخ لا أريده أن يكبر و هو يشعر بالوحدة.

- أتقصد مثلما كبرت أنا وحيدة ؟ ليس لديَّ من يهتم بي لا أخ أسند عليه رأسي ولا أخت تحمل همومي، أحسُّ أنَّني مجهولة الهوية، غريبة عن هذا العالم، مميت هذا الشعور يا خالد.

- لم أقصد هذا أُقسِم لَكِ.

- أعلم أنَّك لم تقصد، لكنَّني حساسة من هذا الموضوع فهو يزعجني و يقلقني كثيرا، في أحيان كثيرة أريد أن أعرف من أنا ؟ أريد و بشدَّة معرفة من هم أَهلِي ؟ أفسدت يومنا هذا عليك يا خالد بدون وعي، أنا آسفة.

- لا تتأسفي أعرف شُعورِكِ، لكن صدِّقيني يا نجلاء كل منَّا يملك نقصا داخله، لا أحد كامل و لا أحد يملك كلَّ شيء، لَستِ وحْدكِ من يشعر هكذا.

- لكنَّني لا أستطيع انتشال هذا من داخلي لا تعلم شعور أن تستيقظ وليس بجانبك أحد سوى الأطفال اليتامى من حولك الذين أصبحت تتقاسم معهم ذلك المكان، نعيش في مكان واحد نتذوق اليتم و البرد و الخوف و الوحدة منذ صغرنا، كم هو بشع إحساس الفقد حين لا تجد من يمسح على رأسك في حنان و أن لا تجد أحدا ينتظرك في المساء يوبّخك لأنَّك لم تحلَّ واجباتك، حتَّى لو ضربك لكنَّه منك، أهلك و لن يتخلَّى عنك مهما حصل و تتمنى للحظة أن تجد من يتمنى لك يوما سعيدا، و عندما ترتفع حرارتك في آخر اللَّيل لا أحد سيسهر فوق رأسك، يضع لك كمادَّات الماء الباردة خوفا عليك و يهمس لك أنَّه سيظل بقربك و لن يَترُكك.

كنت راضية بكلِّ هذا في سبيل أن أجد أسرة تحتويني و تضمَّني لها بين أفرادها و تعتبرني واحدة منهم و فيهم، لا مثل بعض الأسر التي تبَّنت بعض الأطفال ثمَّ أعادتهم في ظروف غامضة فتأزَّمت نفسيتهم أكثر من قبل، كانت تحكي و تقصُّ له لأوَّل مرَّة دون حواجز عمَّا عاشته و عانته من دور الأيتام و قسوة بعض العاملين فيها و استغلالهم لبعض الأطفال لأغراضهم الشخصيَّة و أهوائهم.

دمعت عيني خالد رغم أنَّه حاول أن يبدو متماسكا و قويًّا أمامها، حاول أن لا يضعف و أن لا تنزل دموعه كلماتها كانت عبارة عن ألمٍ، ألمٌ يجتاحها من الدَّاخل و يبدِّد طمأنينتها بالرَّغم من أنَّها أصبحت تمتلك عائلة صغيرة و لكنَّها جميلة و أصبحت تحظى بالدِّفء الأسري الذي افتقدته طوال حياتها، لكنَّ حنان الأم و الأب لا يعوضها أيُّ بديل فإحساس الأمان شعور مذهل (كانت تمنِّ نفسها كثيرا و تطمئنها ببضع كلمات حانيَّة أنَّها عندما تكبر و تمتلك عائلة و منزلا خاصًّا، غرفة نوم، وأطفالا صغارا ستنسى ما حصل معها، هذا كان رجاؤها و عزاؤها الوحيد و لكنَّ شعور الفقد ظلَّ ملازما لها و معها).

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

-كلُّ ما منيت به نفسي يا خالد لم يكن سوى كذبة بيضاء كانت تكبر يوما بعد يوم و تتلطَّخ بأكاذيب البشر حتَّى صبغ عليها اللَّون الأسود، كنت أريد من داخلي أن أصدِّق أن أهلي لم يتخلَّوا عني و أنَّهم سيأتون لأخذي من هذا المكان اللَّعين عندما أكبر قليلا، لكن مع مرور الوقت لم يأت أحد فخاب ظنِّي، ثمَّ بعد ذلك قلت لنفسي محدِّثة إياها لربَّما تصرَّفت تصرُّفا خاطئا أو أنَّني كنت طفلة مشاغبة فأراد أهلي معاقبتي و قرَّروا نبذي هنا لحين أصبح فتاة عاقلة، أصبحت مهذَّبة وأسمع الكلام و أشرب كأس حليبي كاملا و أنهي طعامي لكنَّ أحدا لم يأت لاصطحابي، لا يعقل أن تدوم هذه العقوبة لسنوات فخاب ظنِّي أكثر فأكثر و تحطَّمت أمالي و تلاشت جميعها، بترت أمانيا، لم أعد أحلم بأيِّ شيء و لم أعد أصدِّق كلام الكبار، أصبحت الذكريات تعصر رأسي و أرجع إلى نقطة الصِّفر عند كلِّ كذبة أنسجها في خيالي و أصدم بواقعها، في العطل و عندما كانوا يسمحون لنا بالخروج قليلا للترفيه عن أنفسنا كنتُ أتألم أكثر فقد كنت أرى كلَّ طفل مع أهله، ذاك يركض وذاك يلعب و ذاك تمسكه أيدي أبيه و أمِّه معا حتَّى لا يظلَّ وحيدا و ذاك يتسوَّق معهم

كنت أحقن نفسي بمورفين التَّحمل لأواصل طريقي، أعيش الأمَّرين، ذبل كلُّ ما بداخلي، لا أحد جرَّب شعور الميتم أن تصاحب الخوف و تعيش مع البئس وتعايش كل شيء، صعب أن أروي لك ما عايشته إنَّه لا يحكى بل يعاش فقط هو مزيج من الألم و الوجع.

انحدرت بعض الدموع على خدِّه حاول أن يمسحها بسرعة حتَّى لا تلحظه.

استجمعت يومها ذكرياتها واحدة تلوى الأخرى و هو يستمع لها بتمعنٍ و ينصت باهتمام ممسكا كفَّها الصَّغيرة الدَّافئة بيده فقد أقسم أنَّه لن يتركها أبدا.

دخلت في دوَّامة صمت فجأة بعد أن نال منها التعب و الإنهاك وصمت المكان من حَولِها فقام خالد من مكانه متجها نحوها و ضمَّها لصدره حينها انفجرت لم تتحمل و تركت الحريَّة لدموعها، كانت تبكي وتعانقه بشدة تمسكت به بكلِّ طاقتها تحضنه كمن تمسَّك بجذع شجرة خوفا من الغرق.

أحسَّ بالألم الذي، مسح على رأسها، دفع الحساب و أمسك يدها وتركا المطعم.

نورالايمان عباس براءة على قارعة ذنب

قالت بلسان متلعثم :

- أفسدت اللَّيلة كلَّها عليك.

- لا تقولي فجبنا بالنسبة لي لا يقيِّده أيُّ يوم و لكن هذا خاص فقط، فلا تقلقي.

- ....

- في الواقع يا نجلاء لقد تأخرنا على سامي سيكون بانتظارنا.

- سنجلبه ونذهب إلى البيت بعدها.

- أوف يا الله لقد نسيت أن أتَّصل لأتفقد المكتب نسيت أن أتصل بالمكتب !.

- بإمكانك أن تتصل بميساء و تسألها !.

- عندما نصل إلى البيت ذكريني حبيبتي، الآن وجهتنا إلى المدرسة فسامي سيكون بانتظارنا و لا يجب أن نتأخر عليه.

زحمة السَّير أخرتهم قليلا عن ميعاد خروج سامي من المدرسة فقد ظلَّ ينتظرهم عشرة دقائق.

- مرحبا كيف حالك بنيَّ ؟.

- لم يجبهم بأيِّ كلمة بل صعد إلى السيَّارة و هو مستاء و متجهِّم الوجه.

ناداه خالد و هو ينظر له في المرآة :

- سامي، ماذا به ابني اليوم حزين ؟ هل أزعجك أحد في المدرسة أم أنَّ المعلِّمة وبَّختك لأنَّك لم تدرس جيِّدا ؟ ثم واصل كلامه مع أنِّي أعلم أن ابني مجتهد و شاطر.

عقد ذراعيه أمامه و قال بنبرة :

- لماذا تأخرتم عليَّ ؟ لقد بقيت لوحدي أكثر من ساعة و أنا أنتظركم.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- نحن آسفين، فأنا و أبوك كنَّا في المطعم و لم ننتبه للوقت.

- أي أنَّكم نسيتموني !.

- لا، طبعا أيعقل أن ننساك ؟ أنت قرَّة أعيننا و فلذة كبدنا، نحن آسفين يا صغيري.

- لكنَّني ظننت أنَّكم تخليتم عنِّي و لن تأتوا أبدا !.

ارتسمت علامات الدَّهشة على وجه نجلاء فالتفتت إلى حيث كان جالسا ابنها في المقعد الخلفي لترى تعابر وجهه لكنَّها فوجئت عندما رأت أنَّ ملامحها جديَّة و أنَّ الموضوع ليس بمزحة، فتحت فمها من شدَّة الذهول و تملَّكتها الحيرة و التَّعجب و قالت له بأسى :

- كيف نتخلى عنك يا سامي و أنت ابننا ؟ من يتخلَّى عن قطعة من روحه ؟.

- أجابها بعدم مبالاة :

- و لكن يا أمّي أنت أيضا تخلّى أهلك عنك.

- ماذا ؟ من أين لك بهذا الكلام يا سامي ؟.

قال له أبوه :

- لا تُعرْ كلام الكبار اهْتمامًا.

- سمعتكِ تتكلمين مع جدَّتي وقد أَخبرتكِ أنَّك لا تملكين عائلة.

- أنْتِ كَذبتِ عليَّ يا أمّي، تلاشت ابتسامتها تلك و أصبحت صقيعا باردا، ثمَّ واصل قائلا :

- و المعلمة تقول أنَّ الكذب حرام.

صمت الجميع بما فيهم أمُّه نجلاء، فلم تعد تعرف ماذا تقول له ؟ و كيف تبرّر كذبتها البيضاء ؟.

أظنَّ أنَّ جرحها لن يندمل أبدا و سيظلُّ ينزف طوال حياتها و لن يتوقف الوجع عند محطَّة واحدة من عمرها لن يتوقف ماضيها فقد بدأ يعيش معها ذلك الم بكل لحظة ثمتا شيء ما يذكرها لن يتركها تعيش حياتها لا يتركها تزاول حياتها بشكل طبيعي كانت كالفراشة المكسور جناحيها الكلُّ يدري بألمها، لكنَّ لا أحد يعي كيف يعالجها ؟ يا إلهي أنْتَ وحدك تعرف ألمي أعطيني جرعة صبر، فأنا لم أعد أحتمل كلَّ هذا، يزداد الثقل الذي يجتاحني، يا الله ألهمني الصبر فأنا أحتاجه جدًّا.

قال خالد لسامي منبّها عليه :

- لا تسمع كلام الكبار يا بنيَّ مرَّة أخرى فليس كلُّ ما يقولونه عبارة عن صِدقٍ.

- يعني أنَّ أمّي أيضا لم تقل لي الصِّدق يا أبي.

نظرت نجلاء إلى خالد و قالت له :

- أليس كلام أمُّك صحيحا يا خالد، دعني أخبره بالحقيقة لا أستطيع أن أخبئ عليه، كبتت دمعتها داخلها وكأنَّ رصاصة غرست بأحشائها.

نور الايمان عباس براءة على قارعة الذنب

يا ملاكي سامي اسمعني :

- كلام جدَّتك صحيح أنا يتيمة، كان خالد يحسُّ بوجع كلِّ كلمة كانت تتفوه بها نجلاء، و واصلت قائلة :

- لكن ليس هذا ذنبي يا صغيري، فأنتم عائلتي وهبكم الله لي لتعوضوني بها عن ذلك النقص الذي كان شاغرا في حياتي، سكت سامي وقبَّل رأس أمِّه رغم أنَّه لم يفهم الكثير ممَّا قالته و لكنَّه كان يشعر بحجم ألمها بين كل تنهيدة كانت تفصل حديثها، شعرت بالقليل من الأمان لكنهَّا كانت دائما تمتلك إحساسًا بَشعًا بأنَّها ستفقد كلَّ هذا في يوم ما، لا تعلم لماذا ؟ لكنَّ هذا الشعور كان يكبر معها كلَّ يوم خالد كان يحاول دائما أن يشعرها أنَّها قدره ولا يمكن للإنسان أن يتخلَّى عن قدره أبدا.

- هيَّا بنا نعود إلى البيت لكي تعدَّ لنا أمُّك الأكل لأنني جائع جدًّا.

- و أنا أيضا يا أبي عصافير بطني تزقزق.

نور الايمان عباس برامة على قارعة ذنب

- ألن تعدِّي لنا الطَّعام يا حبيبتي ؟ رمق نجلاء بنظرة منه و غمزها.

- طبعا سوف أطبخ لكما كلَّ ما تَشتهيانِه.

- أسمعت يا سامي ؟ أمُّك ستطبخ كلَّ ما نشتهيه هيَّا بنا نطير إلى البيت بأقصى سرعة.

قبَّل يدها و أمسكها بقوَّة لكي يشعرها بالأمان فهو يعلم بما تمرُّ جيِّدا و أنَّها تحاول التأقلم مع جميع الأوضاع بصعوبة و يقدِّر ذلك و بين الفينة و الأخرى كان يسترق النَّظر إليها و هو يسوق و تارة إلى الطَّريق.

****

وصلوا إلى البيت بعد طول الطريق، كان حينها سامي قد نام كالملاك حمله خالد بين يديه ودخلوا البيت، كلٌّ منهم منهك وليس لديه رغبة في الأكل، فقط أراد خالد من نجلاء أن تنشغل بإعداد الطعام لكي تنسى قليلا.

رنَّ هاتفها، نظرت إلى شاشة الهاتف كانت تلك وفاء تريد، متأكدة أنَّها تريد الاطمئنان عليها وعلى سامي و خالد.

- ألو، أهلا نجلاء أين أنْتِ غائبة عنِّي اشتقت لك كثِيرًا، كيف حالك ؟.

- هلا حبيبتي وفاء، أنا أصبحت الحمد لله إذا أردت أن تطمئني عليَّ بسبب ما حدث في آخر مرَّة و أنْتِ كيف حالك ؟.

- الحمد لله بخير غدا إذا ليس لديك أيُّ شيء تقومين به غدا، دعينا نلتقي خارجا لنرفِّه عن أنفسنا و لو قليلا من الضغوطات و المشاكل.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- حسنا، سوف أسأل خالد و أُخبركِ.

- أنا بانتظارك ، ها بلِّغي سلامي لخالد و قبِّلي سامي من وجنتيه و أبلغيني في رسالة إذا أمكن أن أَراكِ غدا أو لا، لا تَنسيْ الأمر.

- أُوكِ سوف أُبلغكِ يا وفاء.

- ماذا بك ؟ صَوتكْ يدلُّ على أنَّك متعبة أو أنَّ هناك خطبا ما ؟.

- لا يوجد شيء مهم، كالعادة.

- عندما نلتقي ستخبرينني بكلِّ شيء، أوك انتبهي على نَفسِك يا نجلاء

- حَاضِر مع السَّلامة.

- ماذا كانت تريد منْكِ وفاء يا نجلاء ؟ (كان هذا صَوْت خالد قادما من غرفة المكتب يسألها عمَّا كانت تريده أخته).

- لا تقلق، لا يوجد شيء مهمٌ هي فقط تريد أن نلتقي غدا في الخارج.

- جيد اذهبي معها وغيّري الجوَّ.

- لكنَّ موعد عودة سامي من المدرسة على السَّاعة الثانيَّة عشرة.

- لا تقلقي أنا سأنتظره.

المهم ان تذهبي انتِ وتسوقي معها ايضا اعرف انكِ اشتقت اليها لكن مسؤولة البيت على كاهلكِ واقدر هذا شيء

- لا يا خالد أنا أخدمكما بكلِّ سرور من هذا لا يهمني التعب المهم أن تكون أنْتَ و ابني راضيين عليَّ و سعيدين.

- أنْتِ تاج رأسي كيف لا أرضى على روحي ؟، أنْتِ زهرة اللُّوتس خاصتي.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

تبسمت نجلاء وقالت له :

- الله لا يحرمني من وجودك بحياتي حبيبي، أنا محظوظة بك لولاك لما تحملني أحد و لن يتحمل أيُّ بشر مَشاكلي ....

- لا تقولي هذا أَرجوكِ أنْتِ جزء مني فكيف لا نتحمل بعضنا البعض ؟ الزواج تعاهد بين اثنين في السَّراء والضَّراء ونحن مرتبطين بميثاق حب سوف نظل هكذا يدا بيد وروحا على روح الى ان نهرم سوية و ترتسم خطوط التجاعيد على وَجهكِ الملائكي أنا متأكد سوف تكونين فاتنة وحتى وأنْتِ مسنَّة، لكنَّك لن تتخلصي من ثرثرتك، أنا متأكد.

ضحكت بصوت عالي و هي تغمض عينيها بيديها قائلة :

- هههههههه، لا، لا أريد أن أصبح عجوزة.

- جميعنا سنكبر و نهرم و نمرُّ بهذه المرحلة و لا أحد منَّا سيتجاوزها، الأهمُّ من الشَّكل أن لا يهرم ما في قلوبنا و يظلُّ مزهرا مخضرًّا.

أجابته نجلاء :

- سنظلُّ كروح واحدة مع بعض لا يمكن لأحد أن يفرقهما، عانقها وناما بعمق، استيقظت خالد على إثر سماعه نجلاء و هي تغمغم ببعض الكلمات، كانت السَّاعة الرَّابعة تماما، كانت كوابيس تحاصر، في تلك اللَّيلة لتصرخ بأعلى صوتها :

- لا تخنقني، أنا أريد عائلتي.

فزع خالد على وقع صراخها و هزَّها من كتفها برفق :

- نجلاء، حبيبتي نجلاء ماذا حدث ؟ هذا مجرد حلم استيقظي ....

فتحت عينيها مفجوعة، مفزوعة تتعرَّق و قد غزت حبَّات العرق جبينها كلآلئ.

- هل أنْتِ بخير ؟.

نور الإيمان مجلس براءة على قارعة ذنب

- إنَّهم يحاولون أخذي بعيدا عن عائلتي سوف يقتلونني، لقد كان ملثمين ....

- يا حبيبتي أنا بجانبك لا أحد يأْخذكِ أنتِ بجانبي وهي تبكي من إثر كابوس الذي راودها كانت ترتجف من الذي رأته، حضنها خالد و أخذ يهدّئ من روعها قليلا و يطمئنها قائلا :

- أنظري، إنَّه مجرَّد كابوس، لقد انتهى.

جلب لها كوبا من الماء، كان يشاطرها حتَّى أحزانها كي يظلَّ قلبها ينعم بالسَّلام و الأمان مسح على رأسها في حنان و أخيرا هدأت بين ذراعيه كطفلة وديعة، صغيرة تائهة تبحث عن مرفأ للأمان، تحتاج جرعات من الاهتمام لعلَّ ما بداخلها يطيب و لو قليلا، و غفت جفنيها أخيرا و نامت قريرة العين، لكنَّ خالد لم يذق طعم النَّوم تلك اللَّيلة بل ظلَّ مستيقظا يفكِّر في نجلاء و ما آلت إليه حالتها النفسيَّة بعد آخر زيارة لأمِّه و وقع ذلك القاسي على قلبها، كان يفكِّر كيف له أن يدخل إلى قلبها السَّعادة و السرور ؟.

نجلاء أصبحت حالتها صعبة كمن يرسم الدُّموع على خدَّيه و يقف مجبرا ليتقبَّل التعازي في صمت، فقد لمس في نظرتها قلقا حقيقيًّا و خوفا من القادم ودَّ بشدَّة لو كان بمقدوره مساعدتها، استبدَّ به اليأس، العجز و الخوف و الشُّعور بالذنب، تلك المشاعر المتناقضة التي كانت تستحوذ على تفكيره، حدَّق في ملامحها البريئة الطفوليَّة في ساعة متأخرة من جوف اللَّيل عينيها تشيان أنَّ الأمور لن تكون بخير، فتلاشت شجاعته للانصياع للذي حلَّ بها، تمعنَّ فيها و أدرك بالأيام المقبلة ستكون بأشدِّ حاجتها إليه.

- يا إلهي ماذا أفعل كي أبعد عنها كلَّ هذا التوتر و القلق ؟ لكن ما علاج من فقد الأمل ؟

كانت مخاوفه تعصف به إلى مكان بعيد، عاجزا، مقيَّدا لا يقدر على فعل شيء، لا يعلم ما الذي يقوم به لكي تعود نجلاء نفسها التي عرفها منذ زمن و الآن أصبح لا يستطيع السفر إلى ايِّ مكان في هذه الفترة بسب عمله ومشاريع التي تنتظره، بلغ طوره الأخير من التفكير، يسافر بأفكاره، فكرة تأخذه وفكرة تجيئ به و لكن في الأخير يجد نفسه واقفا عند نفس النقطة.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

****

انقضى الليل و حلَّ الصباح مادَّ ظلَّه ولم تستيقظ نجلاء كعادتها كانت كل يوم تستيقظ مبكرا إلاَّ في هذا اليوم، منذ أن تزوجا لم يحدث أن استفاقت بعده، لكنَّ خالد في ذلك الصَّباح أشفق عليها فقام بإعداد الفطور، رآها تأخرت كثيرا و لم تستيقظ فسارع إليها يتفقدها متوجها نحوها بسرعة، لمس رأسها و قال في حيرة و تعجب محدِّثا نفسه :

- أمممممم، ليست محمومة و وضع رأسه على صدرها مستمعا إلى دقَّات قلبها.

هنا تأكد أنَّها بخير و لا تشكو من شيء، قد أخذها النَّوم فقط و غفت بعمق من فرط تعبها.

لم يشأ إيقاظها تركها نائمة، بدت له هادئة في نومها و ذهب لإيقاظ سامي حتَّى يطعمه و يصحبه إلى المدرسة فقد كانت هذه هي مهمَّة نجلاء الدائمة.

أدار الأرقام متَّصلا بالمكتب :

- ألو ميساء، سأتأخر اليوم ساعة كاملة حتَّى آتي إلى المكتب، ثمَّة أمور طرأت و لا أستطيع تأجيلها، حاولي سدَّ الفراغ إلى حين مقدمي، و اتركي أيَّ أوراق مهمة على طاولتي، كلَّمها باختصار فهو لم يتعوَّد أن يشرك الغرباء في أموره الشخصيَّة مهما حصل.

****

نور الايمان عباس براءة على قارء الكتب

ساعد ابنه في ارتداء ملابسه و حضَّر كلَّ شيء بالشَّكل الصَّحيح، كان يحاول بسرعة توفير الوقت و بعد أن أنهى سامي فطوره توجه إلى غرفة نجلاء انحنى قليلا قبَّل جبينها قبلة خفيفة كنسمة عابرة تنهدَّ قليلا و بدا الارتباك عليه، شعر بغصَّة في حلقه، كان يتمنَّى أن يكون كلُّ ما حصل آيلا للزوال، أحسَّت هي به كحلم لكنَّها لم تستيقظ.

تثاءبت حاولت أن تجلس شعرت أنَّ كلَّ ما في جسمها ثقيل عليها جدا كأنَّها نامت دهرا أو دخلت في سبات طويل، كانت تشعر بكلِّ قطعة فيها متكسِّرة، قامت متكاسلة و غسلت وجهها، تناولت فطورها على مضض، اتَّصلت بوفاء حتَّى تقابلها على نفس الموعد، كانت تريد إخبارها بكلام كثير، لكن بنفس الوقت لم تكن مستعدة للتفوه بأيِّ شيء.

- ألو وفاء.

- كيف حَالكِ يا نجلاء ؟.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

(ساورها حزن عميق من سؤال وفاء و أيقظ مشاعرها الدفينة).

- الحمد لله و أنْتِ كيف هي أحوالك ؟.

- أنا أَيضًا بِخيرْ.

- اتصلت بك لكي أذكرك بموعدنا مَساءً أنا بحاجة لمحادثتك جدًّا.

فهمت وفاء من إلحاح نجلاء و إصرارها أنَّها متعبة، تشكوا من خطب ما و أنَّ ثمَّة شيء ما ينخر صدرها و تريد الفضفضة فقالت لها :

- حسنا، دعينا نلتقي على السَّاعة 12 ظهرا، هل يُساعدكِ هذا التوقيت ؟.

- طبعا يساعدني هذا التوقيت لأنَّ خالد سيهتم بأمور سامي اليوم كما تكفل بإحضاره من المدرسة، أنا مشتاقة لكي أجلس معك كأيامنا السَّابقة.

- و أنا أيضا يا نجلاء لا تعلمين كما أنا مشتاقة لك و أحنُّ إلى الأيام التي كانت تجمعنا، سأراك بعد ساعتين، على موعدنا.

- انتبهي لنَفسكِ يا حبيبتي وفاء.

- مع السَّلامة.

أنهت نجلاء المكالمة وذهبت لكي تحضِّر نفسها للخروج مع وفاء، همَّت أن تتصل بخالد لكن لولهة تذكرت الموقف الذي حصل معها البارحة وخجلت من نفسها كثيرا و ممَّا حدث، تردَّدت أصابعها لضغط زرِّ اتصال و لكن قرَّرت محادثته.

وصل خالد إلى العمل متأخرا بساعة وتفكيره كلُّه يصبُّ في نجلاء حبيبته وزوجته ورفيقة دربه وروحه، ماضيه و حاضره، أحلامه و جميع أمانيه و كلَّ ما يملك، كان يسمِّيها زهرة اللوتس خاصتي و لا يريد لتلك الزهرة أن تذبل أبدا.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- مساء خير أستاذ خالد.

- أهلا ميساء.

- أمس كان لديك اجتماع مهم ولكنَّك رغم ذلك لم تحضر.

- كانت لديَّ ظروف لم أستطع القدوم، لكن قال لها صارخا :

- لماذا لم تعلميني ؟.

خافت ميساء منه لأوَّل مرة فهي لم تعهده عصبيًّا لهذه الدرجة فتلعثمت و تلاشت شجاعتها قائلة :

- أنْتَ بنفسك أخبرتني أن لا أتصل بك إذا كنت بالبيت !.

لم يدعها تنهي كلامها و هي التي كان داخلها متخما بالكلمات، ثمَّ ضرب المكتب بيده قائلا :

- كيف لي أن أنسى اجتماعا مهمًّا كهذا ؟ كيف ؟ عملت جاهدا طوال السَّنة لكي ينجح هذا المشروع، استنفذت الكثير من الوقت و الطَّاقة، لكن للأسف الشديد سيرجع المستثمرون إلى بلدهم غدا و أنا سأجرُّ خيبتي، أصابه اليأس و تشوشت أفكاره رفع رأسه صوب ميساء، ثمَّ أمرها بالانصراف قائلا :

- أتركيني لوحدي، أريد الاختلاء بنفسي.

(كان إحساسه مريرا، كشخص يمتلك شيئا غاليا و هو على وشك خسارته).

ثمَّ ناداها مستدركا قبل خروجها :

- حاولي الاتصال بهم يا ميساء وقولي لهم أنَّ ما حصل خطأ بالتوقيت وتأسفي لهم نيابة عنِّي.

- أمرك يا أستاذ خالد.

أدرك أهمية المشروع و الوقت الذي ضاع من يديه و همس لنفسه قائلا :

نور الإيمان عباس براءه على قارعة ذنب

- ماذا عَسانِ أفعل لأتلافى هذا الخطأ الجسيم ؟.

اتصلت ميساء بالوفد الإنجليزي بِناءً على طلب خالد، و حاولت أن تبرِّر سبب تأخرهم عن تقديم المشروع في وقته و إخلالهم بالاتفاق، كان ردُّهم ناشفا جدًّا و أخبرها أن مشروع الشراكة قد ألغي بناء على طلب مديرهم و أغلق سماعة الهاتف في وجهها.

توترت كيف لها أن تبلغ خالد بهذا القرار ؟ فهو حتما سيغضب، دقَّت الباب برفق.

جاءها صوته قائلا :

- تفضلي يا ميساء.

- ....

- أخبريني ماذا حصل مع الوفد ؟ متى سيكون الاجتماع القادم هل اليوم أو غدا ؟ كان متحمسا

- أستاذ خالد ....

- ماذا هناك يا ميساء ؟.

تلعثمت و غمغمت ببعض الكلمات ثمَّ قالت :

- أستاذ خالد، لقد قرر الوفد فسخ الشراكة و سيعودون أدراجهم إلى إنجلترا غدا.

- ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ نهض بسرعة فاختل توازنه و اتكأ على مكتبه، وصل الدم إلى رأسه من الغضب احمرَّ وجهه من الغضب، أسرعت ميساء محضرة كوبا من الماء حتَّى تهدأ أعصابه، كانت تحمل الكوب و يديها ترتجفان، فأخذ الكأس و رماه جانبا.

حرصت على انتقاء ألفاظها بعناية خوفا من أن تزيد الطِّين بلَّة و ينفجر في وجهها من شدَّة الغضب

- هل تريد شيئا ؟.

- لا أريد أيَّ شيء، أخرجي من المكتب حالا و أغلقي الباب من خلفك و لا تنسي أن تلغي جميع المواعيد كان يتحدَّث و قد بلغ الطَّور الأخير من العصبية، أحسَّ بضياع تعبه و أنَّ خسارته كبيرة لا يضاهيها أيُّ خسارة.

****

نور الإيمان عباس براوة على قارئة نت

ذهبت نجلاء إلى موعدها لمقابلة وفاء، قبّلتا بعضهما البعض فور رؤيتهما لبعض، فقد كانتا مشتاقتين لبعضهما لكنَّ الظروف حالت بين لقائهم في الفترة الأخيرة بسبب انشغال كلِّ واحدة منهما بحياتها الخاصَّة فتلك كانت تنشغل بعملها أما نجلاء فقد كانت مسؤولية البيت كلُّها على عاتقها وحدها رغم هذا لم تكن تشتكي من هذا.

- كَيْف حَالكِ يا نجلاء ؟

- أنا لست بخير.

- لقد لاحظت هذا الشيء في ملامحك، فاليوم تبدين أكثر هدوء و ملامحك يخيِّم عليها السكون، ماذا حصل لَكِ ؟ دعينا نجلس و أخبريني لقد أقلقتني عليك فأنا أشعر أنَّ جوفك مليء بالكلمات.

- كوابيس تراودني كلَّ ليلة ونفسيتي متعبة جدًّا يا وفاء.

- هل الموضوع متعلِّق بأَهلكِ يا نجلاء ؟.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- ....

- يا نجلاء أَنتِ تعيشين حياتك بسعادة فانسي هذا الموضوع.

- ليس باستطاعتي يا وفاء فهذا الموضوع سلب راحتي و أصبح يفسد عليَّ صفو حياتي، فكيف لي أن أنساه ؟ و هو الذي أصبح يشغر حيزا كبيرا جدا، حتَّى سامي في ذلك اليوم سمع جدَّته تتكلم وسألني أمام خالد كيف كذبت عليه بخصوص أهلي ؟ و أقول له أنني أملك عائلة و لكنَّهم بعيدون عنِّي و أنا حقيقة لا أعرف أيَّ شيء عنهم، هذا هو اليوم الذي كنت أخشاه أن أسقط من عيني ابني، حائرة جدًّا أصبحت أرى كوابيسا من شدة تأثير هذا الموضوع على نفسيتي أريد أن أعرف من هم أهلي صعب جدًّا ؟ أن أحاول التعايش مع واقعي و أنا مجهولة الهوية، أريد أن أجدهم، فأنا أشعر أنَّني غريبة عن نفسي، يا وفاء أرجوك ساعديني.

- أين ستبحثين عنهم في مدينة كبيرة كهذه ؟ لن تجدي شيئا متعلِّقا بماضيك، إلاَّ عن طريق المستشفى الذي ولدت فيه، لكنَّك لا تعلمين أيُّ مستشفى بالذات ؟ و فرضا وجدته، أخبريني بالله عليك في ملايين السِّجلات كيف ستجدين عائلتك ؟.

- سأذهب و أقوم برؤية السِّجلات واحدا تلوى الآخر فلربَّما صادفت حدثا ملفتا و يكون بنفس تاريخ ولادتي، لن أستفيد من الاسم، لأنَّ دار الأيتام هي من أطلقته عليَّ.

- لا توجد فقط مستشفى واحد يا نجلاء، استوعبي هذا يا حبيبتي على الأقل يوجد خمسة مستشفيات.

- لا تحبطي أملي أرجوك يا وفاء، أريد خيطا واحدا يوصلني إليهم ربما إلى أمي أو أبي أو إخوتي أو إحدى أقاربي أو قريباتي أو حتَّى الممرضة التي قامت بتوليد أمِّي في تلك اللَّيلة.

- دخلت وفاء في دوَّامة صمت.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- ماذا بكِ ؟ لماذا هذا صمت يا وفاء؟

هل تعرفين شيئا و تخبئينه عنِّي ؟.

- أعرف ماذا يا حبيبتي ؟ لكنِّي أفكر بمدى صعوبة الأمر ليس سهلا إلى هذه الدرجة التي تتخيلينها

- أعرف، لكنِّي أريد أن أجرب، لا أريد أن أبقى مكتوفة اليدين، لن يرتاح لي بال و لن أنام قريرة العين إلاَّ إذا وجدتهم، لن أعرف طريق السَّعادة و الرَّاحة إلاَّ إذا عثرت عليهم، أريد أن أعرف من أنا و ابنة من ؟ تعبت حقًّا، تعبت من تمثيل دائما أنَّني بخير، تعبت من كلِّ شيء حولي حتى خالد أتعبته معي من شدَّة خجلي اليوم لم أقدر أن أنظر إلى عينيه، أشعر أنَّني في دائرة مغلقة كلَّ يوم يكبر حجمها فأضيع أنا داخلها.

- لا تقولي هذا يا نجلاء خالد إذا لم يتحملكِ أنْتِ حبيبته، فمن سيتحمل ؟ أنتم عائلة واحدة يا حبيبتي، لكن لا إياك أن تجعلي هذا الأمر ينغصُّ عيشتكم.

- آه، لقد نسيت يجب أن أتصل بخالد لكي يحضر سامي، فهذا موعد خروجه من المدرسة.

اتصلت به نجلاء، كان هاتف خالد يرن ويرن ولا لكن بدون جدوى، فلم يجب على هاتفه.

- غريب جدًّا خالد لا يرد عليَّ، يمكن أن يكون في طريقه إلى سامي، خالد لم يسمع هاتف بتاتا كان مستلقيا على كرسيه يفكر ويفكر فنسي تماما موعد ابنه من شدة الضغط.

- خرج سامي ولم يجد أحدا، ظنَّ أنَّ أباه سيتأخر بسبب زحمة السير مثل المرَّة الماضية، لكنَّه تأخر كثيرا فخاف لأوَّل مرَّة لم يأتي أحد لاصطحابه من المدرسة، راودته أفكار طفوليَّة بأنَّ أهله تخلَّوا عنه مثلما تخلَّى أهل أمِّه عنها، فجلس على الرَّصيف و شرع في البكاء بصوت مسموع.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

كانت نجلاء تتحدَّث مع وفاء بأريحيَّة، مطمئنة البال بأنَّ سامي مع والده الآن.

- أنا أنانية جدا يا وفاء، أتعلمين هذا ؟.

- لماذا تقولين كلاما كهذا يا نجلاء ؟.

- لأنني لم أُكلِّف نفسي عناء السؤال عنك طوال الفترة السَّابقة ؟ بل انشغلت بنفسي و مشاكلي ونسيتك تماما.

- لا تتأسفي يا حبيبتي نحن نعتبر كأختين و ليس بيننا كلام كهذا، كلٌّ منا مشغول بهمه، أنا أيضا إذا تزوجت سوف أنشغل عنْكِ بحبيب القلب و أطلقت ضحكة مستفزة وهي تغمز بعينها.

- تبسمت نجلاء قائلة :

- يا وليك، يا وليك إذا نسيتني، أَقتلكِ إذا انشغلتِ عنِّي يوما ما يا وفاء.

نور الايمان عبلس براءة على قارعة ذنب

- نسينا أن نطلب الغداء، أنا جائعة بطني تزقزق.

- و أنا أيضا جائعة، لقد أخذنا الحديث.

- أطلبي الباستا يا وفاء أحبها جدًّا.

- أما أنا سوف آكل سَمكًا، فأنت تعلمين حبِّي له.

****

حديث يتلوه حديث و حلَّ المساء باسطا عِتْمته، أمَّا سامي فقد خرج من بال خالد تماما، بقي بالمكتب يلوم نفسه على موضوع العمل نسي كل شيء حتى أنَّه و لأوَّل مرة لم يتصل بنجلاء كعادته، أما سامي فقد ظلَّ قابعا أمام باب المدرسة يبكي ويبكي، حزينا منكسرا لأنَّ أباه و أمَّه نسياه و لم يأتي أحد لاصطحابه حتَّى هذه السَّاعة.

قلقت نجلاء كثيرا محدِّثة وفاء :

- لماذا لم يتصل بي خالد، كان يجب عليه مهاتفتي ما إن رأى اتصالاتي، يا ترى أين هو وهل جلب سامي من مدرسته أم لا ؟.

أجابتها وفاء :

- أيعقل يا نجلاء ؟ كيف لخالد أن ينسى موعد خروج سامي من المدرسة ؟.

- لا أعلم !.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- هيا بنا نذهب أوصليني إلى البيت في طريقك، لأنني جئت إلى هنا في سيارة أجرة.

- أوك سأقوم بدفع الحساب و أنْتِ يا وفاء اسبقيني إلى السيارة.

دفعت نجلاء الحساب وتوجهتا إلى البيت و عند وصلهما، طرقت نجلاء الباب ظانَّة منها أن خالد موجود بالبيت وسيفتح لهما، قالت محدِّثة نفسها:

- غريبة، فأنا لا أسمع ضجيجا في البيت وكأن لا أحد موجود يا نجلاء.

- كيف لا أحد ؟ الوقت الآن السَّادسة و الربع مَساءً، كان يجب أن يصلوا إلى المنزل قبل ساعتين.

- لا يعقل، هل تحملين نسخة من مفاتيح البيت ؟.

- طبعا، موجودة، هي في حقيبة يدي.

بدأت نجلاء تبحث عنهم و كلُّ ما فيها يرجف، أمسكت وفاء حقيبتها، فوجدت المفاتيح، فتحت باب البيت بسرعة لم يكن هناك من أحد تفاجأت قائلة :

- نجلاء أين هم لماذا لم يأتوا ؟ أيعقل ذهبوا إلى مكان ما ؟.

- لكن خالد لا يذهب إلى أيِّ مكان دون إخباري فهو يعلم أنَّني سأقلق.

- يمكن، أن تكون زحمة الطريق قد أخرتهم !.

- لا أعلم يا وفاء أنا محتارة سوف أتصل بخالد مرَّة أخرى، لعلَّه يسمع رنين هاتفه هذه المرَّة.

كان خالد قد وضع هاتفه صامتا حتَّى لا يزعجه رنينه، صمت يطوِّق المكان و هو جالس كتمثال لا يتحرَّك بل يفكِّر فقط.

- لماذا لا يردُّ ؟ ماذا حصل ؟ باتت نبضات قلبها تتسارع و راودها قلق فظيع.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- إلى أين سوف نذهب يا وفاء ؟ و أين نبحث عنهم ؟.

- تعالي لنذهب إلى المدرسة يمكن أن يكون هناك اجتماع للآباء و قد تأخروا لهذا السبب.

- لا، غير معقول اليوم ليس الأحد و لا الخميس، اجتماع الآباء أيضا يكون صباحا و ليس مساء أحسُّ بالعجز كالذي لا يستطيع فعل شيء هل يا ترى ذهب إلى بيتكم، شلَّت أقدامها و لم تعد تقوى على حملها و بدأت تتعرَّق.

- لا أعلم سأتَّصل حالا بأمي لكي أسألها عمَّا إذا كانت تعرف شيئا.

- الو امي هل أتى خالد إليكم اليوم ؟.

- لا لم يأتي، لكن لماذا سألتي ؟.

- لا تقلقي، مجرَّد سؤال فَقطْ.

- أَيْن أنْتِ يا وفاء ؟.

- عند نجلاء سأرجع متأخرة للبيت، الآن أنا مُضْطرة إلى أن أغلق الخطّ.

- قبل أن تغلقي يا وفاء، قولي لي ماذا هناك ؟ لقد أصابني القلق.

- لا يوجد شيء يدعو إلى القلق يا أمّي مع السَّلامة الآن.

أومأت نجلاء برأسها لوفاء علَّها تزفُّ لها خبرا مفرحا يسرُّ خاطرها، لكنَّ وفاء ما لبثت أن بدَّدت طمأنينتها اللَّحظية و نفت ذلك بهزِّ رأسها قائلة :

- أمي لم ترى خالد اليوم.

-كانت نجلاء ترتجف، فهي لا تعلم ماذا حدث ؟.

أمسكتها وفاء من يدها و هي تجرُّها قائلة :

- تعالي لنذهب إلى المدرسة ارتدي معطفك، توجهتا إلى المدرسة.

نور الايمان عباس برامة على قارعة ذنب

في تلك اللَّحظة كان سامي جالسا على الأرض يضمُّ رجليه بكلتا يديه الصغيرتين ويرتجف من شدَّة البرد والخوف يجتاحه فمن توتره تبوَّل على نفسه لا إراديا، أمَّا خالد فقد كان غائبا عن الجميع لم يترك له التفكير فسحة ليتذكَّر ابنه سامي.

****

و أخيرا وصلت نجلاء ووفاء إلى المدرسة، آملين بذلك ايجاده، خرجت نجلاء من السيارة مثل المجنونة تبحث يمينا وشمالا لمحته من بعيد عند باب المدرسة قابعا على الأرض توجهت نحوه وهي تجري فاتحة ذراعيها تناديه :

- سامي حبيبي، ملاكي، ابني ما الذي حلَّ بِكَ ؟ماذا تفعل هنا وحيدا في هذه السَّاعة المتأخرة ؟ و أين أبوك ؟

عانقته و هو يبكي بشدَّة و يقول لها :

- أنا لا أحبكم فأنتم تخلَّيتم عنِّي كما فعلت عَائلتكِ ونسيتموني هنا وَحيدًا.

كانت نجلاء متعجِّبة لكلامه فضمَّته إلى صدرها و قبَّلت جبينه و الذكريات تتوالى في عقلها (في يوم ما جلست نجلاء على الرَّصيف تنتظر أهلها لكنَّ الفرق بينها و بين ابنها فهو عنده من يقلق بشأنه أمَّا هي فظلَّت وحيدة دون أن ينتبه لغيابها أحد).

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- لا يا حبيبي لا تقل هكذا نحن نحبك و أنْتَ كل شيء بالنسبة لنا، رأته متبولا على نفسه تفاجأت لأوَّل مرة يفعلها تحته.

- لكن أين هو أبوك ؟.

- أنا لم أره منذ الصَّباح ؟.

- أيعقل أن ينسى إحضارك من المدرسة ؟.

أشارت إليها وفاء بصمت كي يغادروا المكان.

- هيا بنا نذهب إلى البيت، أكيد خالد في المكتب وعنده اجتماع لهذا لم يأتي.

ركب الجميع السيارة و توجهوا إلى البيت وكلٌّ منهم يخيِّم عليه السُّكوت، لولا وجود وفاء كانت نجلاء ستنهار لأنَّها لم تعد تقوى على التحمُّل.

- يُمكنكِ الذَهابُ يا وفاء.

- لا لن أذهب، سأبقى معك هذه اللَّيلة، لن أترككما لِوَحدكما.

- لَولاكِ يا وفاء لما كنت تداركت كلَّ هذا.

- لا تشكريني هوا ابن أخي قبل أن يكون ابْنكِ يا حبيبتي، سنأخذ أنا وهو حمَّاما لعلَّه يَهدأُ وبعدها أغيِّر ملابسه و نأكل القليل من الطعام و نخلد بعدها إلى النَّوم.

- و أنا سوف أعدُّ الأكل لكي يتناوله، متأكدة أنَّه لم يتناول شيئا منذ الغذاء و أنَّه يشعر بالجُوعْ.

- أوك يا قلبي.

أنهت وفاء تحميمه و ألبسته ثيابه و أطعمته شيئا خفيفا و خلد بعدها للنوم كعصفور وديع مكسور الجناح، كان اليوم صعبا عليهم جميعا أمَّا وفاء فقد أحسَّت بقلق على خالد لكنَّها لم تظهر هذا لنجلاء، فقامت للمطبخ و أعدَّت لنجلاء كوبا من اليانسون لكي يهدِّأ من أعصابها.

- التفكير يقتلني يا وفاء لا أعلم ما الذي جعل خالد ينسى سامي ؟ لولا لطف الله كنت سأفقد ابني، كلَّما تذكَّرت ما حصل معه أكاد أصاب بالجنون، ليتني لم أطلب منه أن يحضره هو و ذهبت أنا لاصطحابه، يا ليت.

- يا نجلاء كلٌّ منَّا معرَّض للنسيان أو السَّهو فجميعنا بشر.

- أعلم هذا لكن ليست من عادته هذا حتَّى أنَّه لم يعد إلى حدِّ هذا الوقت، أتعلمين ؟ منذ تزوجنا لم ينم خارج البيت.

- ربَّما الآن هو مع الوفد الإنجليزي يا نجلاء، أعذريه.

في هذه الأثناء مرَّ كالنسمة عليه وجه ابنه سامي فقام منتفضا و تذكَّر أنَّه كان عليه إحضاره من المدرسة، نظر إلى السَّاعة وجدها تقارب التَّاسعة تماما فدهش أخرج هاتفه و فتحه وجد ما يقارب العشرين اتصالا من نجلاء ففهم.

- ماذا سأقول لنجلاء ؟ كيف أتَّصل فيها الآن ؟ سامي، يا ترى ماذا حلَّ بسامي ؟ ابني كيف يعقل أن أنسى ؟ تبًّا، تبًّا لسهوي ولكلِّ شيء، ماذا أفعل يا ترى ؟ فتح الرسائل فوجد ما يقارب العشرين رسالة من نجلاء، تسأله فيها عن ابنهما و آخرها كتبت فيها أنَّه أصبح الآن معها في البيت دون أن تذكر التفاصيل و لكنَّها نبهت عليه أن يتصل بها فور رؤيته لكلامها، أنَّب نفسه كثيرا، فكيف ذهب من عقله ابنه ؟ وضع كفَّيه على رأسه و هو غارق في التفكير، يكاد رأسه ينفجر.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

جاء الصباح و أشرقت الشَّمس لتعلن بداية يوم جديد، كان يوما رائعا فقد كانت السَّماء صافية زرقاء، وصل خالد بيته فتح الباب و عندما أدار المفتاح أصدر صوتا استيقظت نجلاء على إثره، فانطلقت مهرولة بسرعة نحو الباب :

- خالد أين كنت لقد قلقت عليْكَ ؟ لم تتصل بي طوال اليوم الماضي، أيْنَ قضيت ليلتك ؟ أخبرني كلَّ شَيءْ.

- نجلاء دعيني ألتقط أنفاسي فأنا متعب جدًّا فلم أنم منذ لَّيلة البارحة.

- أنا أيضا قلقة جدًّا كنت أنام و أصحوا مثل المجنونة، لقد نسيت إحضار سامي و ظلَّ طوال اليوم جالسا وحيدا، هل تعلم أنَّه من شدَّة خوفه تبوَّل على نفسه و أنبَّني كثيرا ؟ و قال لي أنَّه لا يحبنا وظلَّ طوال اللَّيل يرى أحلاما مزعجة ....

صرخ في وجهها :

نور الايمان عباس براهمة على قارعة ذنب

- تبًّا، تبًّا أنْتِ لا تعلمين ماذا واجهت بالأمس ؟ خَسرتُ الشراكة مع الأجانب التي كنت أعمل عليها من سنة و ضاع تَعبِي سدى، لأوَّل مرة علا صراخ خالد و ارتفع صوته أمام نجلاء أَغْلقت عينيها وسرت رعشة قويَّة جسدها من شدَّة صراخه وغضبه كانت عيناه تقدحان شررا و يرمي بالكلمات كبركان انفجر داخله، لم تعهده نجلاء هكذا أبدا.

نجلاء لم تقصد شيئا من كلامها، فقط كانت قلقة عليه حتَّى تصرفاته بدت لها غريبة عن المألوف، توجه نحو غرفة ابنه لكي يتفقده، جلس على الأرض يجثو على ركبتيه قبَّل رأس سامي و همس في أذنه قائلا له :

- سامحني يا ابني لم أقصد نسيانك هناك وحيدا لكن الظروف كانت أقوى منِّي ومنك و نزلت من مقلتيه دمعة كانت أصدق من دموع الأطفال آنذاك ونام أسفل سرير سامي و هو جَاثٍ على ركْبَتيه عند رأس ابنه.

أمَّا نجلاء فكانت حزينة و متألِّمة لسوء التفاهم الذي حصل بَينهُما، ظلَّت وفاء تواسيها قائلة :

- مؤكَّد لديه ظروف أقوى منه في العمل يا نجلاء لا تستائي حبيبتي، كلُّ شيء ينحلُّ.

أومأت نجلا برأسها في صمت دون أن تتفوه بكلمة.

فواصلت وفاء قائلة :

- لا تتكلمي معه لاسيما أنَّه لازال متعبا، لأنَّه أَخبركِ أن عينه لم تذق طعم النوم اللَّيلة الماضيَّة، أَرجوكِ لا تتكلمي معه اليوم، أتركيه يهدأ و يرتاح وحتما سوف يشعر بالخطأ الذي ارتكبه.

- حاضر وفاء.

- أنا سأذهب الآن، لدي عمل اليوم وتأخرت يا حبيبتي، سأمرُّ عليكم مساء إذا كان لديَّ بعض الوقت لذلك.

- شكرا لَكِ يا وفاء على كلِّ ما فعلتيه لأجلي.

نور الايمان عبلس براءة على قارعة ذنب

- لا تقولي هذا يا نجلاء، نحنا أختين فلا داعي لشكري، أطلب من الله أن تنحلَّ أموركم كلُّها.

- لَكِن لا تنسي ما أَوصيتكِ به !.

- ماذا ؟.

- موضوع المستشفى و السجلات ....

- لا لن أنسى سأُوافيكِ بكلِّ الأخبار يا نجلاء، الآن أنا ذاهبة.

- في أمان الله يا وفاء قبَّلتها وذهبت، بقيت نجلاء لوحدها مستيقظة كان بالها مليئا بالأفكار، تأكلها الأسئلة و تشوِّش رأسها، غدت تحدّث نفسها قائلة :

- يا ترى ماذا حدث لخالد بالأمس ؟ وبدأ الشك يتسلَّل إلى قلبها وينهشه، هل يا ترى يوجد شيء سيِّء ؟ و أنا لا أعلم عنه شيئا، أو ماذا ؟ يا الله ساعدني لأنَّ رأسي سينفجر من التفكير

وكأنَّ فوق رأسي غيمة سوداء كبيرة، الكثير من الأمور أصبحت غير واضحة وما أصعب أن يكون الإنسان داخله مليئا بالشك ولا يستطيع أن يرسوا على برِّ الأمان، قامت بإعداد كوب من القهوة لعلَّها ترتاح من الصداع وتروض عواصف قلقها، وضعت فنجان قهوتها و بجانبه قطعة شكولاتة، كان منظرها مغريا جدًّا، يطفوا فوقها الكثير من الرَّغوة، منظرها شهي، لكنَّها لم تشربها ظلَّت تتأملها فقط، في هذه الأنحاء استيقظ خالد كان يحسُّ بالندم الشديد من التَّصرف الأخير الذي بدر منه لكن لم يستطع أن يعبر عن أسفه.

قال بندم :

- صباح الخير .

ردَّت عليه :

صباح النور وفقط.

نور الإيمان عباس براءة على قارعة ذنب

ولكنَّ داخلها كان يتكلم كثيرا على رغم أنَّ الصمت كان يسود بينهما، كل منهم يريد أن يعتذر للآخر و يوضح الأمور، لكنَّ الصمت خيَّم عليهما فلم يتحدثا، تناول خالد القليل من الزيتون وشرب قهوته، راح يرتدي ثيابه على عجل منطلقا إلى عمله، لأنَّ لديه الكثير من الأشغال، لم يقل أيَّ شيء لنجلاء، استدار كان يريد معانقتها وتقبيل جبينها، كان قريبين من بعض لا تفصلهم سوى خطوة واحدة، لكنَّ عنادهما كان أكبر منهما، تردَّد فانطلق ذاهبا في طريقه، فتح الباب ثمَّ قرَّر أن يخرج ولا يستسلم لمشاعره الجيَّاشة حتَّى أصبح خارج المنزل، لقد اعتادت نجلاء قبل ذهابه كلَّ يوم أن يقبِّل جبينها ويوصيها على نفسها لكن و لأوَّل مرَّة تخلَّى عن عادته تلك، عاتبت نفسها كثيرا لأنَّها ضغطت عليه كثيرا.

قالت في نفسها بحسرة :

- ربَّما كان عليَّ ألاَّ أضغط عليه.

أيقظت نجلاء سامي و أطعمته فطوره ثمَّ أوصلته إلى المدرسة و ما لبثت أن عادت إلى البيت بسرعة، كانت تشعر بالملل فقد بدأ يتسلَّل إليها ربَّما لأنَّ خالد بات يتجاهلها كثيرا فقد خلَّف هذا شعورا بشعا داخلها.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

في هذا الوقت كانت وفاء متَّجهه إلى مكتب مُحَمَّد الذي يعمل معها في نفس المكان فقد كان هو من يمسك سجلات المستشفى كاملة، قصدته حتَّى تسأله عن موضوع نجلاء فلربَّما استطاع مساعدتها لعلَّى وعسى تجد خيطا يربطها بماضيها، دخلت وفاء مكتب مُحَمَّد مبتسمة :

- صباح الخير.

- أهلا وفاء، زارتنا البركة، عاش من شافك يا بنت، أين اختفيت هكذا فجأة ؟.

- إنَّه العمل فقط و أمور الحياة أنت أدرى بها، لكنِّي اليوم و بصراحة جئتك متقصدة أن تُساعِدني في موضوع يا مُحَمَّد.

- ما هو ؟ إن كان بإمكاني مُساعدتكِ لن أقصِّر بشيء، تأكدي في هذا.

- لدي تاريخ ميلاد لفتاة (زوجة أخي نجلاء) ولدت هنا ، لكنَّ أحدهم سلَّمها لدار الأيتام في نفس يوم ميلادها، وترعرعت هناك، فجئت متأملة الحصول على الأقل من تكون أمُّها ؟ أو من هو الشَّخص الذي سلَّمها للميتم ؟ و هي قرَّرت مؤخرا أن تبحث عن عائلتها من تكون ؟ أريد منك أن تبحث لي في السِّجلات إذ كان يوجد أحد مطابق لنفس تاريخ الميلاد هذا الذي ولدت فيه الفتاة ؟ فهل تستطيع مساعدتي ؟ أم أعود أدراجي.

- سوف أحاول مُساعدتكِ لكن توجد سجلات قديمة جدًّا، يأكلها الغبار، من سنين لم تفتح، لن أتمكن من البحث داخلها بسهولة.

- لا يوجد لديها مشكلة في عامل الوقت، المهم أن تجد عائلتها سوف أكون ممتنة لك إن وجدت التاريخ، لكي نتوصل لشيء يقودنا إلى عائلتها.

- لا تخافي أغلب سجلات المولودين مدوَّنة هنا، لكن كما قلت لَكِ سأحتاج إلى وقت طويل ربما يطول الأمر إلى شَهرْ.

- رقمي عندك اتصل بي يا مُحَمَّد إذا وجدت أيَّ شيء، أو إذا احتجت لمساعدة بهذا الخصوص، سوف آتي إليك في أوقات فراغي و أساعدك.

نور الإيمان عباس براهمة على قارعة تنب

- فكرة جيدة عندما أبدأ البحث سوف أُخبركِ لكي نبحث مَعًا.

اتصلت وفاء بنجلاء كي تخبرها أنَّها تكلمت مع مُحَمَّد الذي يمسك سجلات المشفى الذي تعمل به.

قالت نجلاء بسرور :

- شكرا حبيبتي لقد أسعدتني.

- أتأمل أن يجد شيئا، لكنَّ السجلات كثيرة و أظنُّ أنَّ الموضوع سَيطُول قليلا.

- ليست لديَّ أيَّة مشكلة، الأهم أن يبلِّغك أَخبارًا مفرحة.

- هناك مستشفيات كثيرة في مدينتنا على الأقل يوجد خمسة، إذا ما وجد شيئا هنا سيخبرني.

- أكيد يا وفاء لن أترك هذا الموضوع حتَّى أَحصُل على شيء.

- نسيت أن أَسألكِ على خالد، ماذا قال لَكِ ؟.

نور الإيمان عباس براءة على قارعة ذنب

- خالد لا يكلمني من أمس، لا أعرف ما السبب ؟.

- لا تنزعجي يا نجلاء غضب الرجال هكذا، سيأتي بنفسه ويعتذر لَكِ، أنا أعرف أخي جيّدا.

- سأنتظره لكي يتكلم معي.

- ماذا سوف تفعلين اليوم يا نجلاء ؟.

- و الله أشعر بكثير من الملل، لا أعرف لماذا أصبحت أفكر في أن أرجع للرسم ؟ أنت تعلمين لقد تركته من سنوات و الآن أريد أن أعود إلى سابق عهدي من جديد.

- لكنِّي أخاف أنَّ خالد لن يوافق فأنت تعرفين أنَّه لا يحب الرسم فهو يتعبك و أيضا يَشغلكِ عن أمور البيت.

- أنا آمل لا يوجد شيء أفعله أظلُّ لوحدي طوال اليوم، حتَّى خالد وسامي لا يأتيان إلاَّ مَساءً، فماذا عَسانِ أَفعلْ ؟.

- أوك حبيبتي، لكن لا تتعبي نَفسكِ يا نجلاء، سوف نتكلم لاَحقًا.

- أكيد سنتكلم، أَراكِ لاحقا مع السَّلامة.

أغلقت نجلاء الهاتف وراحت تغير ملابسها حتَّى تذهب لشراء معدَّات الرسم، لكي تبدأ من جديد فالرَّسم كان يعني كلَّ حياتها و هي لا تستوعب كيف انقطعت عنه طول الفترة السَّابقة ؟ كانت مبدعة و موهوبة جدًّا ارتدت ملابسها و انطلقت متَّجهة إلى المحل لاقتناء ما تريد.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

وصلت نجلاء لمحلٍّ قريب منها حتَّى تقتني ما ينقصها.

- صباح الخير.

- أهلا سيدتي.

- أريد معدات الرسم ولوحات و أوراق بيضاء ذو جودة عاليَّة و ريشات بأرقام قد بينتها لك على الورقة هذه.

- كم تريدين من لوحة ؟.

- أريد لوحتين و ستة ريشات للرسم، أقلام رصاص، ألوان شمعية، هذا فقط.

- هل لديكِ طَلبٌ آخر ؟.

- لا، لكن هل بإمكانك إرسالهم لي إلى هذا العنوان لأنني لا أقدر على أخذهم معي الآن ؟.

نزار الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- أَمركِ، سوف تصلك بعد ساعة على عُنوانكِ.

دَفعتْ ثمنهم، و عادت أدراجها راجعة إلى البيت، كانت سعيدة لأنَّها سوف تعود لممارسة هويتها، وأنَّها اقتنت كلَّ ما كان ينقصها، لكنَّ خالد سبق و أن عارض هذا الأمر، لهذا لم تهتم نجلاء هذه المرَّة لرأيه أبدا لرأيه ربما كانت تقصد عناده، لكن رغم كلِّ ما حصل بينهما كانت تشتاق إليه، تظلُّ هكذا حتَّى يسدل اللَّيل غطاؤه و بعدها تعود أدراجها بفشل في هذه المعركة، معركة الاشتياق، حتَّى خالد كان يبحر في نفس الأفكار بعيدا، لكن لم يحرِّك ساكنا جالسا على مكتبه يفكر تارة بالوفد وتارة أُخْرى بنجلاء التي جرحها أمس بكلامه وتجهلها، أصبح حائرا تماما لا يعرف ماذا يفعل و لا كَيْف يتصرَّف ؟.

وضع الشركة يزداد سوءا إذا لم يجد شريكا سوف يعلن إفلاسه و لا يستطيع أن يشارك همومه مع أحد لا أمَّه ولا نجلاء، أخذ مفاتيح السيارة وخرج قائلا لميساء :

- لا تحوّلي أيَّ اتصال آخر و أجلي مواعيد اليوم المتبقيَّة كلَّها إلى الغد، رأسي يؤلمني ولَستُ بمزاج أَستطِيع فيه التَّركيز بالعمل.

قالت له :

- حاضر يا سيدي.

ميساء كانت حزينة على حاله فهي لم تعهده هكذا، انقلب حاله فجأة وبدون سابق إنذار، المشاكل تحاصره من كلِّ جهة ماذا حلَّ به ؟ هل هي عين حاسدة أم هذه هي حياة الأعمال يوم تكون جيِّدة ويوم عكس ذلك ؟.

ترك مكتب خالد و اتَّجه إلى البيت كي يرتاح قليلا، مرَّ على المدرسة حتَّى يجلب سامي ويعودا معا، وصلا البيت، كانت نجلاء قد جهزت الطعام لهما، فتح الباب ودخل سامي أوَّلا قبَّل خدَّ أمِّه وذهب إلى غرفته.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

دخل بعده خالد قائلا :

- مساء الخير.

- أهلا بك.

فقط كلمتين لا أكثر وكأن جدار من الصمت حال بينهما، دخل إلى غرفته أخذ حمَّاما و لحق بهم إلى طاولة العشاء.

لكن المكان خيَّم عليه الصَّمت، أصوات المعالق تصطدم بالأطباق فتحدث ضجَّة غريبة، يفصل بينهما كرسي سامي فقط، أيحول السكوت بين المرء و حبيبته هكذا ويبني داخله جدار من الكبرياء ؟ (وكأن سحابة كبيرة ممطرة ومغيمة تجول فوق رأسهما فتحجب عنهما ضوء الشَّمس، بدأ خالد يعتاد على الوضع الجديد و لا يأبه لتصرفاته الباردة)، نظرت إليه نجلاء في سكون و هي تحدِّثه بينها و بين نفسها :

- حُبكَ يا خالد كان خلاصي، جاء بعد الفرح بنكبتين، شيء ما عالق في حنجرتي هذا المساء يا حبيبي ليتك تشعر ليت، كأنَّه كثيرا من الكلام العالق في حنجرتي كغصَّة، لا أستطيع الافصاح عن مشاعري إلاَّ بقطرات من الدُّموع التي تحكي وجعي، حزني، فقدي وحكايتي.

فراغ كبير داخلي يجتاحني حيرة تحتويني وكأنني هرمت من التفكير لا أجد معبرا يقودوني إليك، أحتاج إليك، أحتاج إلى صوتك، وحده يشفي غليل قلبي و يرمِّم حطامي، أريد لملمة شتاتي أريد أن أخبرك بأنني أفتقدك حتى و أنْتَ معي تحت سقف واحد لكن شعور الأَمانِ اختفى، اختفى من داخلي وكأن اليدين التي تعودت أن تعانقا روحي قبل جسدي قد كسرها الجفاء.

تركل الكلُّ المائدة متوجِّها إلى أشغال فسامي توجه إلى النوم و خالد إلى غرفة ثانية منعزلا عن نجلاء فقد قرَّر أن ينفصل عنها حتَّى في الغرفة، لم تعهد منه نجلاء تصرفا كهذا منذ زواجهما، لقد بدأت الفجوة تكبر و تكبر بينهما، هل المشاكل تغير الإنسان أم أنَّ للجفاء وللكبرياء دور في هذا ؟ في هذه اللَّيلة حضنت نجلاء صمتها و توسَّدته لكن عصى عليها النوم

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

و أحسَّت باليتم الحقيقي الآن، فلا أهل ولا زوج، كانت تحمل فوق كتفيها جبالا ثقيلة من الهموم.

ظلَّت تفكر بخالد ففي عينيه حزن يشبه حزنها لا بل و أعمق بكثير كلام معه فها هما قد انفصلا حتَّى أصبح كلُّ واحد منهما بغرفة حتَّى سامي بدأ يحسُّ بأن ثمة هناك خطب ما، لكن إلى متى سوف يظلاَّن هكذا ؟ هي تفكر أنَّ هناك سببا وراء هذا التغيُّر وهو غارق بالتفكير في عمله ومشاكله خائف من افلاس الشركة فهي ليست ملكه وحده حتى أهله يملكون أسهما فيها، كان يحتاج لأن تكون نجلاء بجانبه حتَّى تسانده.

جافى النوم عيون نجلاء فقامت من سريرها و قرَّرت أن تبدأ برسم بعض الخطوط، في السَّابق كانت ترسم طوال الوقت ولكن بعد زواجها من خالد طلب منها أن تتوقف و ألاَّ تكمل مهنة الرسم لأنَّه كان يأخذ كلَّ وقتها وجدها، أخرجت عدَّتها لتقتل الملل و الفراغ قضت ليلتها هناك دون أن تشعر بالسَّاعات رسمت وجوها حزينة تعبر عن ما آلت إليه حالتها الضنكة التي كانت تعايشها،

أخيرا أكملت لوحتين كانتا بغاية الروعة أبدعت في رسمها، عندما بزغ ضوء الشَّمس معلنا عن يوم جديد، تركت الريشة والقلم وذهبت لكي تعد الفطور لسامي والقهوة لخالد.

استيقظ خالد كعادته باكرا على السَّاعة السَّادسة صباحا كان الجوُّ جميلا جدًّا، مليئا بسحب خفيفة تزيّن زرقة السَّماء، كان هذا شهر آذار من أجمل الأشهر التي تسبق فصل الربيع و بهجته.

دخل المطبخ لم يقل شيئا كعادته سوى :

- صباح الخير ....

أمَّا هي فردَّت عليه نفس التحية و التزمت الصَّمت بعد ذلك :

- صباح النور ....

غسل وجهه وجلس كي يتناول فطوره بسرعة حتَّى يلحق في الوقت فلديه أعمال مُتراكمةٌ فوق مكتبه، شرب قهوته فهي أساسية بالنسبة له، كي يكتمل يومه، فالقهوة تشبه المورفين لأنَّها تهدئ الأعصاب وخرج بصمت لم يقل شيئا، أما نجلاء ذهبت لكي تنام قليلا وترتاح لأن جفنيها لم تغفوا أبدا، نامت من تعبها ساعتين لكن لا زالت الكوابيس تلاحقها فاستيقظت على إثرها من نومها، (رأت أنَّها عادت إلى طفولتها تجلس في حضن أمِّها إلى أن أتى شخص ملثم وخطفها فبدأت تبكي وتصرخ بقوَّة لكن ما لبثت أن ابتعدت عنها و لم تعد تراها) فزَّت بقوَّة و الدُّموع تبلِّل وسادتها وكأنَّ ما رأته حقيقة و ليس حلما، أخذت حمَّاما حتَّى تخفف من توترها.

اتصل مُحَمَّد بوفاء لكي يبدأ البحث معا في الملفات، لقد كانت تتأمل أن تعود بخبر مفرح لنجلاء ربَّما يعود إليها الأمل.

- مرحبا مُحَمَّد.

- أهلا وفاء كيف حالكِ ؟ أتمنى أن لا أكون قد أيْقظتكِ عندما اتصلت بك صباحا.

- لا فموعد استيقاظي أنا على السَّابعة كلَّ يوم وعندما اتصلت بي كنت أتناول الإفطار.

- عادة جميلة، أنْتِ نشيطة و لست بكسولة.

ضحكت بخجل و حنت رأسها قائلة :

- نعم الكل يقول لي هذا.

- هيَّا بنا، اجلسي لكي نبدأ بأوَّل ملف أنْتِ ابحثي هنا و أنا سأبحث هنا لكي نتساعد وننهيه في أقصر مدَّة.

- أوك أنا جاهزة دعنا نبدأ الآن.

- يلا، بسرعة.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

كانت نجلاء تشاهد التلفاز حتَّى مرَّ أمام ناظريها خبر مهمٌّ على شريط الأخبار (إعلان لمعرض رسم سيتمُّ افتتاح أبوابه قريبا و أيُّ شخص يمتلك الموهبة بإمكانه المشاركة بعرض بعض رسوماته وسيزور المعرض شخصيات كثيرة) سجَّلت رقمهم بسرعة حتَّى تتصل بهم، لكن في داخلها كانت متردَّدة، فكيف لها أن تخطوا هذه الخطوة دون علم خالد ؟ هل تغيَّرت الأمور بينهم حتَّى لم يعد بإمكانه سؤاله عن موافقته قبل أن تبادر بفعل أيِّ شيء، بعد طول تفكير استجمعت نفسها و ضغطت على أرقام الهاتف منتظرة ردًّا :

- ألو مرحبا.

- أهلا سيدتي.

- هل هذا مركز المواهب للرسم والفنون ؟.

- طبعا، تفضلي.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- أهلا أُستاذْ، معك السيِّدة نجلاء.

- تفضلي، هل من خدمة ؟.

- أنا أرسم لوحات منذ سنوات وتركت الرسم في آخر فترة، لكن لي أسبوع منذ عودتي له و قد رأيت اليوم صباحا إعلانكم وتشجعت بيني وبين نفسي لكي أتصل بكم، فهل يمكنني أن أشارك بالمعرض، علما أنني متأخرة ؟.

- أكيد بإمْكانِك المشاركة فهذا المعرض متاح لجميع الرسَّامين وليس لأشخاص معيَّنة فقط، انتابتها شعور بالفرح و قالت له بلطف :

- شكرا لك سيدي و أغلقت سماعة الهاتف بعدها ؟.

راحت ترسم وترسم، بعد عدَّة ساعات كانت قد أتمَّت آخر اللَّمسات لتلك اللَّوحتين الحزينتين وضعت كلَّ طاقتها وشغفها في رسمها و كانت اللّوحتين تبدوان في غاية الرَّوعة، ندمت أشدَّ الندم

لأنَّها انقطعت عن هوايتها المحببة لقلبها فقد كانت موهوبة منذ صغرها فبعد أن تزوجت خالد كانت مخيَّرة بين أحلامها وبين عائلتها، واختارت عائلتها، منذ تزوجت نجلاء وهبت كلَّ شيء لبيتها حبها وحنانها، ضحَّت بأحلامها و أمانيها لكي تبني عشَّها الصغير وتحافظ عليها لكن أحلامها دفنت ورجعت من جديد إلى الرسم و ستشارك في المعرض إن هي استطاعت اللَّحاق في الوقت المحدَّد، لكن هل رياح التغير أحدثت كلَّ هذا ؟ أم أنَّه مجرَّد موسم خريف وسوف يَمضِي.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

كان خالد يبحث عن حلٍّ مع ميساء فكلٌّ واحد منهما يفكر ويبحث بين ايميلات بعض الشركات، عن شركة جديدة يمكن أن تقبل بالشراكة معهم وتنقضهم من الديون والافلاس الذي تؤول إليه الشركة، أمَّا ميساء كانت محتارة تريد لخالد أن يكون بخير فقط، قلبها طيب جدًّا و تريد أن تشعره باهتمامها ناحيته، هو بدأ يحسُّ من نظراتها أنَّ مشاعرها نحوه ليس مشاعر سكرتيرة فقط و تذكر أنَّ كلام نجلاء صحيح و إحساسها كان بمحله ولكن من منَّا يكره الاهتمام خصوصا أنَّ نجلاء ابتعدت عنه و تركت فراغا في حياته، لكن هذا لم يكن مبررا للخيانة فالخيانة ليست علاقة بل هي شعور ونظرة الخيانة تتجسَّد في أبسط الأمور، فالشعور حتَّى و لو كان بريئا لكنَّ مع الوقت سيتحول لأكبر الآثام و أبشع الأخطاء.

فجأة انتبه على نفسه أنَّه كان يحدِّق في ملامح ميساء و يتطلَّع عليها لأوَّل مرَّة على غير عادته، كان يلمح كلَّ تفاصيلها، علاقته بها كانت علاقة رب عمل لسكرتيرة فقط، لكن نظرته اليوم لم تكن نظرة مدير لسكرتيرة وهي أيضا كانت علاقتها محدودة معه خاصة بعد آخر مرَّة عندما حذرها بأن لا تتصل به في البيت، أصبحت تعامله رسميا، لكن في هذه اللَّحظة كانت النظرات غريبة و مختلفة عمَّا سبق، لم تكن نظرات عابثة عابرة بل كان متقصدا هذا، لولهة تذكر نجلاء و لمح طيفها فعاتب نفسه و في تلك اللَّحظة أفاق من شروده و ذهل ممَّا أقدم عليه.

أفاق من صدمته و نكبته حاول أن يرتب نفسه و يتناسى الموقف و اعتبر نظرته غلطة و تعتبر خيانة حتَّى و لو كانت نظرة و لم يفعل أيَّ شيء فالمجتمع لا يرحم أبدا خاصَّة من أمر كهذا، أمَّا ميساء فاستأذنت منه لكي ترجع إلى البيت، قائلة له :

- أستأذنك يا أستاذ خالد، أنا متعبة، أشعر بقليل من التعب و أريد أن أرتاح.

- ماذا بك ؟.

- لا شيء يا أستاذ خالد، لكن هذه الفترة صرت أعمل بدون راحة، ربَّما أنا مجهدة لهذا السَببْ.

- أنا آسف يا ميساء، فأحيانا أُحملكِ فوق طَاقتكِ لكن أحيانا يحدث هذا بدون إرادتي ؟ فهذه الفترة بحياتي ليست متَّزنة أبدا وكلُّ يوم هكذا دواليك، ما أن أَلْبث و أتخلص من مشكلة حتَّى تولد مشكلة جديدة.

- لا تقلق ولا تعتذر منِّي أستاذ خالد، الكلُّ يعمل جهده لكي يجد حلا للموضوع، سوف ينقضي كلُّ هذا صدِّقني.

- سوف ينقضي، لكن متى هذا هو السؤال الصعب ؟.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

انقضى اليوم و عاد خالد إلى بيته كعادته مساء، لكن هذه المرَّة أحسَّ أنَّه اقترف ذنبا بحقِّ نجلاء فهي لا تستحق منه هذه المعاملة، لمحته نجلاء شاردا يحدِّق فيها، كان يحادث نفسه قائلا :

- إنِّي أخاف أن أقترب منْكِ يا نجلاء، أتذكر قبل سنوات عندما رأيتك، قلت بداخلي هذه المرأة ستكون حبيبتي، حبست أنفاسي في أوَّل إطلالة لك، أسرتني، عشقتك، بالغتي في قتلي بنظراتك البريئة، عينيك يجتمع فيهما حزن العالم أجمع، أخاف أن أَكسركِ، أن أرى عَينيكِ اللَّتان أحببت وهما غارقتان في الوجع، أخاف أن يأتي يوم و أكون سبب بُكائكِ، كانت مشاعره مختلطة اليوم كثيرا ومشوشة، أمَّا هي فطالعته بنظرة اشتياق كان تودُّ لو يعانقها وتعانقه ويرويان لبعضهما قصة اشتياقهما، يقول في داخله :

- ليتها تسألني ما بي، يا ليت ؟.

- ليته يسألني عن أحوالي، يا ليت ؟.

- ليتها تشعر بما أمرُّ في هذه الفترة فالوحدة تطوِّقني من جهة و المشاكل تخنقني من جهة أخرى.

نور الإيمان عباس براءة على قارعة ذنب

كان يتبادلان الكلام داخلهما لعلَّ وَاحدًا منهما يتشجعَّ ويبادر الثاني بالصلح و الاعتذار، لكن من دُونِ أيِّ جدوى.

تشتاق لأن تخبره بتفاصيل يومها الصغيرة التي كان سابقا يستمع إليها دون أن يملَّ، أمَّا هو فيشتاق لها لمساندتها له خاصَّة في هذه الظروف التي يمرُّ بها، يحتاجها جدًّا، يشتاق لأن يضع رأسه على صدرها، كان بالنسبة له هي الأمان الوحيد له، كان عبارة عن روح واحدة في جسدين، خلافهما كان تافها جدًّا لكنَّ الفجوة بينهما كبرت مع الوقت و بدأت تأخذ منحى آخر، هل العناد يفعل كلَّ هذا ؟ خلافهما أدَّى بهما إلى مقاطعة بعض.

تنهدت نجلاء و حدَّثت نفسها :

- يَملأنِ الحنين أنا كالعادة و قَاسٍ أنْتَ و طريق وصالنا بَعيدٌ.

رجعت نجلاء بشريط ذكرياتها إلى الوراء، عند أوَّل محطة، عند رؤية عيني خالد، عند أوَّل لقاء بينهما، كان المكان عبارة عن حديقة من ورود تتكلَّل بالأزهار، الريحان، المسك والأضواء، تختلط الأرض مع السَّماء وتصنع مشهدا طاغيا ببهجته يضيع الجميع وتطغى على الكون سعادة عامرة، ذلك الشعور الذي لا يفارقني حتى الآن، كلَّما رأيت نظراتك أحببتك أكثر، كان كلاهما ينظر للآخر فقط دون قول أيِّ شيء، ينظران لبعضهما البعض بنظرات متناقضة فمن ناحية نجلاء كانت نظرات اعجاب، أمَّا خالد فقد كان تائها.

سرعان ما وقعت عينه على لوحات الرسم، فزع، دهش، تفاجأ، بل و صدم كيف لنجلاء أن تعود للرسم ؟ نطق بدون أن يتدارك ردَّة فعله :

- ما هذا يا نجلاء ؟ هل عُدتِ للرسم ؟.

ارتبكت هي و لم تعد تدري ماذا تجيبه ؟.

فصرخ بصوت عالي :

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- ما هذا الذي أراه ؟ ذعرت أكثر وكانت ترتجف كعصفور صغير.

قالت و هي تتلعثم :

- هذه لوحات للرسم.

- أنا لست بأعمى أستطيع أن أرى و أميز أنَّها لوحات رسم ولكن منذ متى و أنْتِ ترسمين ؟

بل الأصح متى عُدتِ إلى الرسم ؟.

- من الملل، حياتي أصبحت مملة جدًّا لا يوجد شيء مهم أقوم به، ليس لديَّ ما أنشغل به فقررت أن أعود للرسم كما في السابق فالرسم يسليني جدًّا، أنت بالعمل وسامي بالمدرسة ووَقتِي كلُّه فراغ.

- غريبة، حتى ولو تَعبتِ من كلِّ حَياتكِ لم أَعهدكِ تشتكين من هذا، ماذا حصل لَكِ ؟.

صرخت لأوَّل مرَّة في حياتها في وجهه دون أن تشعر بهذا، صرخت صرخة عبَّرت عن ما يُخالِجها وما يقبع في قلبها وكأنَّها بصرختها هذه تعلن تمردها على من حولها، على نفسها، على صَمتِها و على كلِّ شَيءْ.

ثمَّ استرسلت قائلة :

- ماذا حصل لي ؟ اسأل نفسك ؟ أنا أيضا بشر يمكنني أن أعبِّر عمَّ في داخلي و أعيش مثلي مثل غيري، أنا أحس بالضجر، أحس بالملل، بتُّ أكره حياتي كلها، إذا لم أشغل نفسي بشيء ما سوف يقتلني التفكير و أختنق من شدَّة الضغط عليَّ، أنْتَ من جهة و موضوع أهلي، من جهة أخرى الملل و الفراغ، أتعلم ؟ أنْتَ أناني جدًّا، لأوَّل مرَّة أرى هذا الطبع فيك، أنْتَ تغيرت ولم تعد تشعر بِيَ، منذ ذلك اليوم لم تحادثني وحتَّى لم تكلِّف نفسك السؤال عنِّي، إن كُنْت بخير أم لا ؟ أنْتَ لم تعد خالد نفسك الذي عرفته، لم تعد ذلك الشخص الذي يحسُّ بي قبل أن اقول أنِّي متعبة وغير قادرة على الكلام إنِّي أموت ببطء، كلَّ يوم تراودني نفس الكوابيس ونفس الشعور السيِّء يكبر بداخلي، يوما سيبتلعني معه.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- أنْتِ لا تعرفين شيئا يا نجلاء، تقومين بلومي فقط و لا تدرين ماذا يَجْري معي ؟.

- إذا أخبرني أتركني أشعر بالطمأنينة، بات الشك داخلي كبيرا، كل يوم أسأل نفسي ما الذي غيرك تجاهي ؟ ماذا فعلت أنا حتَّى أصبت بالجفاء ناحيتي ؟

أيُّ لعنة أصابتنا ؟ وكأنَّك كنت تنتظر حجة في تلك اللَّيلة لكي تغضب عليَّ من دون أيِّ سبب.

- عندي مشاكل بالعمل لا يوجد شيء من الذي في رَأسكِ، أنْتِ تذهبين بمخَيلتكِ بعيدا.

- حتى لو كانت لديك مشاكل فقد كنت تشاركني فيها و بكلِّ ما يخصك، أليست هذه عادتنا منذ سنوات ؟ لم يكن ليمر يوم واحد دون أن تخبرني بكلِّ ما في قلبك، أمَّا الآن فقد وضعت مسافة كبيرة بيننا أصبحت مع الوقت تتحول إلى جفاء يصدُّني و يعزلني عنك، ما أشعر به لم تلبث أن تنهي جملتها فبدأت بالبكاء كانت كلُّ كلمة نابعة من قلبها.

تأثر خالد بكلامها جدًّا ولكنه لم يفعل شيئا وضعت يدها على قَلبِها و أشارت قائلة :

- هذا يؤلمني، يؤلمني جدًّا، سكت ونظر إلى الأرض متفاديا أن يرى عيونها، لم يكن يملك جوابا أو أيَّ كلمات يواسيها بها، لكنَّها لم تكن تريد سوى أن يحسَّ بألمها، بما تشعر الآن سكوته أوجعها وجعلها تتألم أكثر، برود وعدم جوابه لها على أسئلتها و تركها وحيدة.

قام متوجها الى غرفته لم يقل أيَّ شيء أو يعقِّب على كلامها ومضى و كأن شيئا لم يكن.

بكت مرارة الموقف، بكت حبها، حتى جفَّت دموعها كانت وحيدة جدًّا لدرجة لم يخطر لها أحد تتصل به سوى وفاء، لكنَّها تراجعت في آخر لحظة فهي لا تريد ازعاجها بهذا الوقت المتأخر من اللَّيل خافت أن تكون نائمة فهي لا تحبِّذ السهر بسبب عملها طوَّقت رجليها بيديها وظلَّت تفكر والدنيا مسودَّة بعينيها، عاد يراودها الشعور القاسي بالوحدة و كأنَّه عزف على الوتر الحسَّاس، كلُّ حزن العالم اجتمع في عينيها الجميلتين النائمتين تلك العينين التي حلف خالد يمينا ألاَّ يبكيها طوال عمره ولكن في أوَّل شجار خلف بوعده، فتح جرحا عميقا داخلها لن يندمل أبدا أصبح كلُّ شيء باهتا رماديا، في عينيها كسر عميق لكن كان يجب عليها أن تستجمع نفسها وتكمل رسوماتها فبعد يومين سوف تسلِّم لوحاتها لأنَّ موعد المعرض قريب بعد ثلاث أيام، المشكلة أنَّ خالد لم يكن على دراية بأمر المعرض، فهو استاء وغضب لمجرَّد أن لمح لوحات الرسم، كيف إذا علم أنَّ نجلاء سوف تشارك بمعرض كبير بلوحاتها ؟ كانت تريده أن يشارك أحلامها أن يفرح لإنجازاتها و يتقاسم معها حزنها، لطالما كان يفعل هذا دائما معها ولكن ما جدوى الكلام ؟ فهو قد تغير تماما، كانت تحلم أن يرافقها للمعرض، كانت تتأمل أن يفهمها لكنْ أخطأت بظنِّها.

****

انقضت تلك الليلة التعيسة بالنسبة لنجلاء، كانت ليلة متعبة جدا كانت ليلة ممطرة بالأحزان، مليئة بالخيبات بعدم مبالاة خالد، من فرط تعبها لم تستطع أن توقظ ابنها حتَّى يذهب إلى المدرسة، فعندما استيقظت كان الوقت قد تأخر جدًّا، اتجهت لتعد القهوة كان رأسها يؤلمها لعلَّ القهوة تساعدها على التَّركيز، ذهبت لتتفقد خالد لكنَّه لم يكن موجودا في غرفته حتَّى أنَّ سريره كان مرتبا ما يعني أنَّه لم ينم في بيته كانت أوَّل مرَّة في حياته يتصرف هكذا، لأنَّ ليس لديه صديق يذهب إليه ليس له أيُّ أحد حتَّى يشكي فقد كرس وقته للعمل و نسي تكوين صداقات، تحمل المسؤولية منذ نعومة أظافره، شجارهما انعكس بتجاه خاطئ بدأ يأخذ منحى مائل ويخرج عن مساره أحيانا فقد تجري المياه باتجاه آخر.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

وفي هذه اللَّحظات وصلت وفاء إلى المستشفى ومرَّت على مُحَمَّد، سألت عليه كان غير متواجد بمكتبه هوا بالعادة يأتي مبكرا لكن اليوم تأخر، أوصت السكرتيرة قائلة :

- عندما يأتي مُحَمَّد أخبريني.

- حاضر يا آنسة وفاء.

اتصلت وفاء بخالد لكي تطمئنَّ عليه.

- ألو، كيف حالُكَ يا أخي ؟.

- أهلا وفاء لست بخير فلا تسأليني عن حالي، أنْتِ كيف حَالكِ ؟.

- أنا بخير مشتاقة إليك كثيرا فلم أرك منذ وقت طويل، كيف حال نجلاء ؟.

- نجلاء ها !

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

ثمَّ قال بإحباط :

- لقد عَادتْ إلى مزاولة الرَّسم فقط لتعاندني.

- لا، لا تقل هذا يا خالد نجلاء عادت إليه لأنَّها تشعر بالملل والفراغ ليس إلاَّ .!

هذا ليس كلامك، ماذا حصل لك ؟ أين أخي المتفهم ؟.

- لا تدافعي عنها يا وفاء.

- أنا لا أدافع عنها لكنَّك تغيرت كثيرا ناحيتها، ماذا حصلك لك ؟ لما أصبحت هكذا ؟ أنت أخي الحنون المتفهم، ما الذي غيَّرك ؟.

- لم أتغير لكنها تتعمَّد التصرف بشكل يثير عصبيتي و غَضبِي، رأيت بنفسك ذلك اليوم من مشكلة صغيرة صارت تصرخ و تفتعل المشاكل.

- هي كانت قلقة لا أكثر، أنا كنت معكما يا خالد و ذلك الموقف لا يستحقُّ كلَّ هذا الزعل، يجب أن تتصالحا ولا تتركا شيئا بسيطا كهذا يأثر عليكما وعلى حياتكما وعلى سامي الذي سوف يضيع لطالما كنت أفخر أمام الناس بحبكما و أتباهى بكما، لم أكن أصدِّق بالحب إلاَّ بعدما رأيت بأمِّ عيني حبكم وخوفكم على بعض، أنْتَ ونجلاء قطعة روح واحدة، أرجوك لا تتركها في هذه الحالة أبدا، هي تحتاج إليك و كذلك أنْتَ أيضا، لا يمكنكما العيش بدون بعضكما البعض.

في هذه اللَّحظة أطلَّ مُحَمَّد برأسه، كان يريد أن يتحدَّث إلى وفاء لأنها سألت عنه اليوم و عندما سمعها تتحدث في الهاتف انتظر عند الباب لكي تكمل حديثها فلم يشأ مقاطعتها كان ينظر إليها وهي تتحدث نظرات اعجاب، من أسلوبها وكلامها وكلَّ شيء، وفاء فتاة عاقلة جدًّا تتصرف بعقلانية كان عمرها أكبر منها رأته فابتسمت هي، رفع يده إليها مخبرا إيَّاها أن تكمل محادثتها و أنَّه ينتظرها.

- خالد فكِّر بكلامي في هدوء، لا تتسرع في أيِّ شيء، فكِّر في سامي و في نجلاء، كن معها ساندها دعها تشعر بالأمان معك مثل السَّابق، أنْتَ بالنسبة لها خيط النجاة الوحيد الذي تتمسك فيه، فنجلاء ليس لديها أحد، لاتدع هذا الخيط ينقطع لكي تصبح هي بدون أيِّ سند.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- حسنا، في المساء سأتحدث إليها.

- حبيبي خالد تسمعني خالد نادته مرات عدَّة فلم يجب، خالد أين شردت ؟.

- ماذا هناك يا وفاء ؟.

- ماذا بك ؟.

- لا شيء سأذهب لديَّ عمل الآن، نتحدث لاحقا، لم يعر المكالمة أهمية وقطع الاتصال.

- إنَّه مختلفا جدًّا عمَّا عهدته وكأنَّ المتحدث ليس بأخي، ألقت نظرة و إذ به قطع الاتصال، خجلت من نفسها وقالت وهي تتلعثم :

- ربما فصل الخطُّ معه أو أنَّ الشبكة ضعيفة عنده، كانت تريد أن تبرر ما حصل أمام مُحَمَّد، أمَّا هو فقد خجل من الموقف أحسَّ أنَّ وجوده سبب لها حرجا راحت تنظر إليه قائلة :

- آسفة أطلت الاتصال، لقد كنت أتحدث مع أخي.

- لا تتأسفي أظنُّ أنَّني جئت بالوقت الخطأ.

- لالا يا مُحَمَّد أنت تأتي بأي وقت مُرحبٌ بك، تبسم لها و قال :

- جئت لكي أخبرك أنَّني لم أجد لا التاريخ و لا الاسم المطلوب في قائمة السجلات التي بحثت فيها،

حزنت وفاء فواصل قائلا :

- لا تقطعي الأمل لازال يوجد هناك ملف في الأرشيف في آخر رفٍّ لم أبحث فيه، سوف أنزله من الرَّف لكي أبدأ البحث فيه و أُخبركِ بكلِّ المستجدات.

- آمل أن تجد أيَّ شيء يقودونا إلى عائلة نجلاء، فزوجة أخي متلهفة لسماع هذا و أنا لا أودُّ أن أخيب ظنَّها، أريد أن أذهب لرؤيتها و أنا أحمل خبرا يدخل السرور و البهجة إلى قلبها، كما أنِّي أريد مساعدتها للتخلص من الاكتئاب.

نور الإيمان عباس براءة على قارعة ذنب

- أرى أنَّكِ تحبينها كثيرا ؟.

- كيف لا أحبها، نجلاء فهي أختي صديقتي و كلُّ شيء بالنسبة لي، آه لو تراها يا مُحَمَّد تحمل حزن البشر في صدرها بين كفَّيها تحسُّ بالفقد، حنونة جدًّا و لطيفة، صدِّقني هي بريئة جدًّا مثل الأطفال قلبها يحتوي العالم بأجمعه، أنا لا أمدحها لكنها صدْقًا هكذا و أكثر بكثير.

- لا تقلقي، لا زال لديَّ بعض الأمل يمكن أن نجد شيئا يتعلَّق بها في هذا الملف، لا تخافي يا وفاء.

- آمل ذلك يا مُحَمَّد.

سكت وحدَّق فيها، فقاطعته قائلة :

- ماذا هناك يا مُحَمَّد ؟

- هناك سؤال يدور ببالي و لكنِّي متردِّد.

- قل، ماذا هناك ؟.

- هل أنْتِ مرتبطة يا وفاء ؟.

- لا ليس بعد ؟ لماذا هذا السؤال ؟ قالتها و الخجل كان باديا عليها تأتأت بالكلام و علت حمرة خدَّيها الورديتين.

- هل يمكن أن تحددي لي يوما مع أَهلكِ ؟ فغايتي شريفة جدًّا منذ أوَّل يوم رأيتك فيه في العمل، أعجبت بأَخلاقكِ و عقليتك، أعجبني تفكيرك الذي يكبر عُمركِ بمراحل عديدة، كنت أراقبك خلسة دون أن تشعري، لم أكن لأريدك أن تحرجي مني، أو أن ترتابي من تصرفي دون أن تعلمي نيَّتي الجديَّة، في هذا الزمن قليل ما ترتاح لشخص و تحسُّ أنَّك تريد إكمال ما تبقى من حياتك معه وبرفقته، لم تكن تعرف بماذا تجيبه ارتبكت وظلَّت تلعب بيديها كطفلة صغيرة و استجمعت نفسها بصعوبة لكن اعتراها صمت و هدوء.

نورالايمان عباس براءة على قارعة ذنب

فبادر بسؤالها :

- ماذا بكِ يا وفاء ؟ هل خجلتِ من كلامي ؟

أو أَنكِ غير موافقة على عرضي هذا ؟ أو أَنَّني لست الشخص المناسب بنظرك ؟ تحدَّثي لا تخجلي أَبدًا مهما كانت الصراحة سوف أتقبلها برحابة صدر، لا عَليكِ.

و أخيرا انفكت عقدة لسانها وتكلَّمت :

- لالا يا مُحَمَّد أنت شاب محترم جدًّا، خلوق، قاطعها ممازحا :

- وسيم و جميل، ألست كذلك بنظرك ؟.

ضحكت بخجل ثمَّ استرسلت قائلة :

- أنا لم أقل هذا، لكنَّني استغربت فقط، لأَنَّك لم تفاتحني بهذا الموضوع أبدا و نحن أصبحنا زملاء عمل منذ أكثر من سنتين.

- لم أشأ ارباكك حتَّى أتأكد من مشاعرك و أنَّك لست مرتبطة و الآن هل ستكلمين أهلك ؟ أم سيظلُّ الانتظار يحرقنا ؟.

- حسنا، سأتكلم مع أهلي و أخبرك بالتَّوقيت المناسب لكي تزورنا.

غمرته سعادة عارمة و كان يبدو مرتبكا و هو يحادثها حنى رأسه حتَّى لا تصطدم نظراته مع عينيها اللتان كانتا تشعان فرحا و سرورا كان يتكلَّم بأريحيَّة كان يحبِّذ لو يصرخ من شدَّة الغبطة التي بداخله لأنه وجد الفتاة التي كان طوال عمره يحلم بالارتباط بها.

ضحكت وفاء سائلة إيَّاه :

- ماذا بِكَ يا مُحَمَّد ؟.

- لا أعلم كيف أصف لَكِ سعادتي ؟.

ثمَّ استدرك قائلا :

نور الإيمان عباس براءة على قارعة ذنب

- أتمنَّى أن يوافق أهلك بسرعة و لا يتعبوني ؟.

- لماذا ؟ هل يبدو لك أهلي أشرارا ؟.

ضحكا معا من مزحة وفاء.

****

كما الحديد يصدأ، صدئت من الاشتياق والحنين، أصبحنا كغريبين نعيش تحت سقف واحد اسرت في منفى الغربة، كانت تسأل نفسي بدهشة :

- هل ما زال قلبك يدق لي ؟ هل ما زلت أنا حلمك كما كنت ؟

أم أنَّ حبَّنا تلاشى كأحلام اليقظة ؟

لا زال يتملكني لزال ينبض داخل عروقي مع كلِّ دقة قلب، أحلامي بقيت عالقة على جدران منسية، أخاف أن أشهد موتها قريبا.

ضحت بالغالي لأجلك، لم يجبرني أحد على ذلك، فعلت هذا لكي اكون قريبة منك فقط، هل رأيت شخصا يتنازل عن رغباته وحقوقه ؟ أنا من راهنت بكلِّ شيء لأجل حبك، هكذا هو الحب يدفعنا لفعل الكثير من الأمور بإرادتنا خوفا من فقد الحبيب يجبرنا على تقبل كلِّ شيء، نحاول أن لا نخسره فقد لا يتكرَّر مرَّة أخرى.

نزار الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

وكأنَّ الحب جاء بدون راحة، لا أحد ينعم بالسكينة في وجود الحب أو عدمه يعايش الألم، هكذا هي حياة خالد ونجلاء فقد حبهما بريقه فقد ذلك الاهتمام الذي كان يربطهما، خالد كان يحاول بشتى الطرق أن يفعل شيئا لكي يغضب نجلاء حين علم أنَّها عادت لمزاولة الرسم.

كلُّ شيء سيكون جميلا لو قدَّم لها الدعم، لكن عناده طغى على مشاعره، حتَّى وفاء كانت تلحظ تغيره، أصبحت تصرفاته أنانيَّة، هل يمكن للمشاكل أن تغير الإنسان إلى هذه الدرجة ؟ أم أنَّها تظهر المعدن الحقيقي للشخص ؟.

تمضي أيام نجلاء مرَّة بمرارة هذه المشاكل بمرارة نكهة القهوة كانت تطلُّ من الشرفة، لمحت أسرة مكونة من أب و أم و طفلين سرحت فيهم، تذكرت لحظات خروجهم هي وخالد وسامي مع بعض سرحت مطولا حتَّى سمعت صوت جرس الباب يدقُّ، كان هذا سامي قد عاد من المدرسة فتحت له الباب.

ركض نحوها فجأة و ارتمى في حضنها كي يعانقها، استغربت منه و ضمَّته بقوَّة تمسَّك بها كأنَّه يحتاج إلى الحنان فالطفل لا يكبر أبدا فقد أهملته في آخر فترة، أحسَّت بالأمان، كم هو جميل شعور الأمومة ؟ بل مقدَّس.

كانت تفتقد هي لشعور الأمومة و دفئه، في تلك اللَّحظة دخل خالد عليهما هنا فتح الباب ورآها تعانق سامي بين أحضانه عندما لمحته ينظر إليها هرب بعينيه بعيدا، أصبحت المسافة الفاصلة كبيرة بينهما إلى درجة أننا لو مشينا إلى أبعد الحدود لن نقطعها، كلُّ حكاية حب تحكي وجعا صامتا وكلُّ امرأة تحارب واقعها المرَّ، أحسَّت أنَّها كبرت أعواما، بروده كان يقتلها ببطء، أمَّا خالد كان يريد حلا كي يجعل نجلاء تندم على قراراها بالرجوع إلى الرسم.

بدأ الشيطان يهمس له أن يحرق قلبها عن طريق ميساء، فلطالما كانت نجلاء تغار من ميساء كثيرا وتعلم بأنها معجبة به لكنَّها كانت تثق بخالد على رغم اعتراضها على وجودها بمكتبه، قرَّر أن يكوِّن علاقة معها لكي يغيض نجلاء، ما أصعب الإنسان حين يتغير ويصبح شخصا ثانيا، خاليا من و مجرَّدا منها تطغى عليه مشاعر الحقد، يتصرف بطيش، يقدم على فعل أشياء بدون تفكير، متهوِّر، يخسر دون أن يحسب أدنى حساب لأيِّ أحد، لا و الأصعب من هذا أن تخسر ثقة شخص وهبك حياته ك هدية وثق فيك حد العمى، سلَّمك نفسه و كلَّ ما يملك، تخلَّى عن أحلامه لمجرَّد حبه لك، أهكذا يجازى الإحسان بالإساءة ؟.

نور الإيمان عباس براءة على قارعة الذنب

بعث برسالة إلى ميساء كانت هذه أوَّل مرَّة يحدثها بعد العمل.

- مرحبا ميساء. كيف حالك ؟.

فجأة سمعت رنين صوت رسالة ذهبت ناحية الهاتف حتى لمحت أنَّ المرسل خالد، استغربت قائلة :

- يا ترى ماذا حدث ؟ لم اعتد أن يكلِّمني الأستاذ خالد، خصوصا بهذا الوقت المتأخر

همَّت مسرعة بالرد عليه :

- مساء النور، أنا بخير يا أستاذ خالد، ماذا هناك ؟ لا أظن أنَّه يوجد اجتماع في الغد.

- لا يوجد شيء يا ميساء، لكن أريد أن أَراكِ غدا قبل بدأ العمل، ثمَّ استرسل قائلا :

- إذا لم يكن عنْدكِ مانع طبعا !.

وصلها مرة أخرى إشعار ينبهها بأن خالد بعث رسالة جديدة، فتحتها بسرعة متلهفة لمعرفة ماذا كتب داخلها ؟ وقلبها يتراقص من شدَّة الفرح.

كتبت بسرعة الرد :

- أمرك يا أستاذ خالد، سوف نلتقي !.

وافقت بدون أدنى اعتراض، لم تصدق نفسها أخذت ترقص و هي تعانق الهاتف و تدور حول نفسها من الفرح كأنَّها حقنت بجرعات من السَّعادة و تتساءل في داخلها، يا ترى ماذا يريد خالد مني غدا ؟.

ليس من عادته أبدا فهو رجلا متحفظ جدًّا، ليس لديه أيُّ علاقة مع أيّ أحد، علاقته مع موظفيه محدودة ولا يعطي لأحد أكثر من حجمه سؤال يأخذها والآخر يأتي بها وبعدها قرَّرت ألاَّ تفكر وتدع كل شيء للغد فهو كفيل بالإجابة على كلِّ أسئلتها.

أمَّا هو فلم يكن يريد سوى وسيلة لكي يغيض بها نجلاء، كان يعلم أنَّ التَّصرف الذي يقوم به غير صحيح فكيف لشخص يحبُّ حبيبته أن يفكِّر بإيذائها، لكنَّه لم يتراجع، تلك أوَّل مرَّة يراود خالد شعور غريب و أوَّل خطوة يخطوها دون أن يبالي بنجلاء.

أمَّا نجلاء فقد كان الغد هو موعد تسليمها لجميع اللَّوحات التي قامت برسمها، كانت تِسعَة و قد انتهت منهم، مزيج من الألم و الحب فأتقنت كلَّ شيء، رغبتها في النجاح كبيرة و تمنَّت أن تلاقي قبولا لدى الجماهير.

****

صوت المنبّه، السَّاعة تشير إلى السَّادسة و النِّصف صباحا، لكي تحضر لابني الفطور و تحضر القهوة كالمعتاد لخالد حتَّى ولو كان غير مباليا لها كانت تهتم بأصغر تفاصيله، بدأت بإعداد الفطور ولما انتهت توجهت إلى غرفة سامي لكي توقظه حتَّى تحضره ليذهب إلى المدرسة و حاولت أن تسرع لأن اليوم لديها موعد مع صاحب المعرض و لا تريد أن تتأخر، سمعت صوتا خافتا يتكلَّم كالهمس آتيا من غرفة خالد ....

- أهلا عزيزتي، كيف حَالكِ ؟.

كان يتكلم بجرأة بعدم خوف يكلِّم امرأة غيرها شعرت بقشعريرة تسري في كامل جسمها، كيف لخالد أن يكلِّم امرأة أخرى ؟ دخلت في و كذَّبت ما سمعته أذنيها و تقول في نفسها :

- ربَّما هو لا يكلِّم امرأة ،ربما هذا صديقه، راحت تبرِّر و تجد له الأعذار لأنَّ خالد لا يفعل هذا و تلوت على نفسي كلَّ أنواع الكذب، للحظة خلته ملاكا، كلُّ الرجال خائنين إلاَّ زوجي، شلَّت جميع أطرافها و لم تعد رجليها تقوى على في تلك الدقيقة، هول الصدمة كان كبيرا عليها لدرجة أنَّ عقلها لم يستوعب كيف لخالد أن يخونها ؟ فكَّرت في كلِّ الآثام إلاَّ أن يرتكب هذا الإثم، تلاشت شجاعتها، كان عليها الانصياع للأمر الواقع، هنا أدركت أنَّ الحب مجرد وعود زائفة، بضع كلمات تقال في لحظة فرح لا تتجاوز مدَّة بقائها ستين ثانية، لم تبكي لحظتها تحجَّرت دموعها لكنَّها لم تسقط لهول ما سمعته أو أنني لم أستوعب الموقف بعد، أصبحت كشخص أخرس لا يسمع ولا يعي شيئا ممَّا حوله، كانت تحتاج الكثير، لكي تدرك ماذا حصل ؟ واقعة بالأرض تصغي لقهقهة ضحكاته معها تسمع كل ما دار بينهما وكأنها تحلم، أحسَّت أنَّ الأرض توقفت عن الدوران و أصبحت ساكنة معلنة حزنها معها، كانت بالأرض عبارة عن صنم لم تعي شيئا، عبارة عن جثة خامدة إلاَّ عندما أحسَّت بيد تلمسها كانت تلك يد ابنها سامي انتشلتها من قاع البئر المظلم الذي وقعت فيه والموقف الذي نهش أعماقها، هزَّها قائلا :

- أمِّي، أمِّي ماذا حدث ؟ ماذا بك ؟ هنا انتبهت له و حدَّقت فيه دون أن تَنبِس بكلمة.

- ماذا بكِ ؟ أنا أُناديكِ منذ دقائق هل نمتي هنا ؟.

تبسمت بسخرية من نفسها وقالت في داخلها :

- يا ليتني كنت نائمة، لَيْتني مت قبل أن أعيش هذه اللَّحظة.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

ستتعب، ستواجه الكثير من الأمور البشعة

سيخذلك الجميع فجأة وبدون سابق إنذار

سيخذلونك، فقط لأنك وثقت فيهم

لأنَّك مددت لهم يدك فقطعوها

سوف تشعر بالندم لأنَّك كنت طيبا معهم فوق اللُّزوم وأحسنت الظَّن بهم

قَطعْت وَعدًا أنَّك سوف تبقى معي إلى الأَبدْ

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

و لن ترى عينيك شخصا آخر، أظنَّ أنَّها كانت تلك كذبة نَيسانْ

فهل تُغفَر الخيانة بسبب طيش ؟

أم أنَّ الحب يموت مع أوَّل زلة، و أوَّل هفوة

لملمت نفسها وتوسَّدت جروحها و جمعت أشلاء قلبها ا لمحطَّم ونهضت من الأرض، لا تشعر بشيء من حولها تقتلها التعاسة، هل هناك وجع أشدُّ من هذا الوجع ؟ و كأنَّها تلقت ضربة على رأسها فسقطت مغشيا عليها، دخولها عليه لن يغير شيئا.

الموقف هذا وُجِه لها كصفعة قاسية وجهها، فكرت أن تفتح الباب و تواجهه بما سَمعتْه تريد أن ترى ردَّة فعله عندما يلمحها وهو متلبس بالخيانة، تريد أن تواجه عينيه فعيني المحب لا تكذب، ثمَّ ما لبثت أن تراجعت خافت على سامي إن هو سمع أن أباه يخون أمَّه فتتأثر نفسيته.

لم تكن ترغب بأن يعيش سامي يتيما مثلها أمسكت بيده الهزيلة وراحت تمشي بخطوات متثاقلة تجرُّ خيبتها خلفها تمشي وكأنَّها تحمل ثقل العالم بأسره على أكتافها، بحثت عن هاتفها و راحت تتصل بوفاء حتَّى تشاركها آلامها و أحزانها، لعلَّ الوجع يطيب و يندمل ذلك الجرح، أوَّل ما فتحت قالت بصوت مخنوق، باكي :

- ألو وفاء ....

نور الإيمان عباس براءة على قارعة ذنب

و سكتت غصَّة منعتني من التفوّه بالكلمات :

- مرحبا نجلاء، ماذا به صوتك ؟ هل أنْتِ بخير ؟.

- لا، لا لست كذلك، اكتفيت بهذا الكمِّ من الحروف و رُحْت أبكي بيني و بين نفسي.

- ماذا حدث لك ؟.

- أُرِيد أن أَراكِ قليلا، فهل أنْتِ متفرّغة اليوم ؟.

- لا و الله، لا أستطيع اليوم يا نجلاء ....

- لماذا أَيْن أنْتِ ؟.

- اليوم سيأتي مُحَمَّد لكي يطلب يدي ....

- مُحَمَّد !.

- مُحَمَّد تتذكرينه زميلي بالعمل الذي حدَّثتك عنه !.

هذا الذي يعمل معي بالمشفى، راحت تخبرها و الفرحة لا تسعها و هي تغرِّد بصوتها كالعصفور، ثمَّ استدركت قائلة :

- تعالي إلى بيتنا يا نجلاء، شاركيني فرحتي فاليوم أنا مبسوطة.

- حبيبتي فرحت لَكِ كثيرا لكنَّني لا أستطيع المجيء.

- لماذا ؟.

- في الواقع لديَّ موعد مع صاحب المعرض من أجل تسليم لوحاتي فاليوم هو آخر أجل، حتَّى لو أتيت سأعرضك للمشاكل فأنْتِ أدرى بأنَّ أمَّك لا تطيقني و أنا لا أودُّ أن أفسد عليك فرحتك.

- آه، فهمت يا نجلاء تمنيت أن أكون برفقتك و أنْتِ تسلِّمين لوحاتك.

نور الإيمان عامل براءة على قارعة ذنب

- لا عليك يا وفاء، انبسطي فاليوم هو أفضل يوم في حياتك، كوني سعيدة، مبروك تهانينا أتمنى لَكِ السَّعادة طُولَ العمر.

بلعت ألمها كغصَّة ولم تتكلم لم تشأ ان تخرب فرحتها.

- صوتكِ متعب يا نجلاء، ماذا حصل ؟.

- لا يوجد شيء حبيبتي، تعب و إرهاق.

- أشعر أَنكِ تخفين شيئا عليَّ يا نجلاء، أنا أحسُّ أنَّك لست بخير، أنا فقط من تعلم ما بدَاخلكِ، دعينا نتشارك الحزن.

كلمات وفاء كانت تغسل نفسها، نجلاء أحبَّتها كأخت لها.

- نجلاء، ادعي لكي يمر هذا اليوم على خير.

- حبيبتي آمل أن ترى عُيونكِ السَّعادة.

- أريد أن أعيش الحب كما عشْتهِ أنْتِ و أخي خالد.

طوَّق الصمت نجلاء و لم ترغب أن تخبرها بأنَّ أخاها خالد الذي أحبَّها ها هو ذا يخونها حتَّى لا تفسد سعادتها.

شردت نجلاء.

- نجلاء، نجلاء لماذا سكتي ؟.

- أنا مَعكِ يا وفاء الشبكة ضعيفة فَقطْ.

- اتصلت بخالد صباحا لكنَّ رقمه كان مَشغولاً.

- لا أعرف شيئا عنه، اتصلي فيه لاحقا الآن يجب أن أغلق يا وفاء.

- أتمنى لَكِ يوما مُوفقًا.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- شكرا حبيبتي نجلاء.

- مع السَّلامة.

بعد إنهاء مكالمتها مع وفاء، مرَّ خالد من جانبها و ألقة التحيَّة قائلا :

- صباح الخير .

لم تجبه نجلاء متظاهرة أنَّها لم تسمعه و تعمدت فعل هذا و نظرت إليه نظرة استحقار تترجم كل شيء نظرة مليئة بالوجع، كانت تريد أن تصرخ، لكنها لا تقدر على ذلك خجلت وكأنَّها هي من خانته كيف لشخص يحب أن يتصرف هكذا ؟ و يشعر بأيِّ ذنب فكيف و تساءلت داخلها :

- هل يا ترى هذا خالد نفسه الذي أحببته و أحبني بجنون و تحدينا الجميع كي نتزوج ؟

لم تستدر حتَّى تتأمل وجهه لم تكن مستعدة بعد لمواجهته.

****

من سوء حظي نسيت أنَّك بشر و كلٌّ بشر مؤهل لأن يخون

و أنَّ سوء الظن كان أكبر خطيئة حينما ظننت أنَّك لن تخون فخنت

كأنَّها كانت رسالة مُوجهةٍ لي من الحياة أن لا أصدِّق العُهودَ

كذاك الجُنْدي الذي عاهد وحلف أنَّه لن يَبِيع وَطنهُ وباع

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

انقضت الخطوبة على خير والبس مُحَمَّد الخاتم لوفاء وكانت سعادته كبيرة عامرة لا يضاهيها شعور آخر فقد وجد الإنسانة التي قرَّر أن يستقر معها في رحلة حياته القادمة، أمَّا وفاء كان الخجل يعتلي وجنتيها، لم تكد تصدِّق أنَّ أمَّها وافقت على مُحَمَّد و تمَّت خطوبتها عليه بخير، أحسَّت كأنَّها في حلم متناسية حضور الجميع، مشاعرها متزاحمة قليلا، لم تريد أن ينتهي هذا اليوم.

لكنَّ خالد كان يجلس مشوشا، حائرا، تعابير وجهه متغيرة جدًّا على عكس الجميع غارقا في بحر هواجسه و أفكاره.

اتجهت نجلاء إلى صاحب كي تسلِّمه اللَّوحات و تتفق معه على باقي الأمور، لكنَّها لم تكن سعيدة رغم أنَّها تخطو خطوة كبيرة لتحقيق أحلامها، مرتديَّة فستانا أسودا طويلا يعكس سماتها الحزينة، كان فاروق صاحب المعرض يتكلَّم معه و يشرح لها بعض الأمور وهي تسهو تارة وتارة أخرى تحدق فيه وتنصت له لكنَّها شاردة الفكر، انتبه لها فاروق فسألها :

- سيدة نجلاء، سيدة نجلاء ناداها كثيرا حتَّى الْتفَت إليه:

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- ها.

- أنا أحدِّثك، ما بالك شردت ؟.

- آسفة لقد سرحت بتفكيري قليلا، تبسم وقال لها :

- ليس قليلا، بل أنت غارقة في التفكير.

- أنا آسفة لكنني متعبة قليلا.

- لا عَليكِ، لا اريد إتْعابكِ أكثر، اجلسي و ارتاحي قليلا، سوف أطلب عصيرا باردا لكلانا

أومأت برأسها له لكنَّها كانت في عالم آخر مليئة بالحيرة لم تستوعب ماذا سمعت صباحا رأسها يؤلمها جدًّا يكاد ينفجر من التفكير المتعب ؟.

****

هاتف نجلاء يرنُّ، كانت وفاء المتصلة، قلقت من عدم ردِّها عليها و تمتمت قائلة :

كيف لنجلاء ألاَّ تتصل بي في مثل هذا اليوم ؟ هل نسيت ؟ هي تعرف مقدار وحجم سعادتي كانت الأسئلة تتجلى في رأسها ممسكة بالجوال، توجهت نحو خالد سائلة إيَّاه :

- أين نجلاء ؟.

- لا أعلم يا وفاء.

- كيف لك ألاَّ تعلم، أليست هذه زوجتك ؟.

أجابها بتهكُّم :

- هذه صَديقتكِ أيضا وها أنْتِ لا تعرفين أيضا مكانها.

- أنا صديقتها ولست زوجها، أفق ما بالك ؟ ماذا يحصل معك ؟

لماذا تتصرف بعدم مبالاة ؟ هذه نجلاء التي تتحدث عنها، نجلاء التي كنت لا تقبل لأحد أن يمسَّ شعرة منها أو يؤذيها، فكيف يمكن أن تتكلم عنها ببرود ؟ وها أنْتَ تتصرف اليوم وكأنَّها لا تعني لك شيئا، لطالما كنتم مثلا يحتذى به، أنا قبلت الزواج بمحمد لأنِّي رأيت فيه حبك وخوفك وحنانك على نجلاء، أردت أن تكون حياتنا مشابهة لكم، نهض خالد يتململ بكسل، فأمسكته وفاء من ذراعه و هي تلحُّ :

- أجبني على سؤالي و لا تتهرَّب منه، ماذا هناك ؟ قلبي يغلي من شدَّة القلق على نجلاء هي لم تعد مباليَّة، أصبحت مشتتَّة، تشرد كثيرا، تتلعثم بالكلام، تتردَّد في إخباري ما يحصل معها، تخرج حتَّى بدوني، لم تعد تخبر أحدا فينا إلى أين هي ذاهبة ؟ ليست هذه هي نجلاء التي عهدتها و أنت أيضا لم تعد تتصرف ناحيتها كما عهدتك.

- ....

وكأنَّ عاصفة هبَّت بكم وعصفت بحبكم، أتت أمُّه في تلك تبتسم كعلامة نَصرٍ :

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- قد قلت لك مرارا و تكرارا أنَّها لا تناسبك و أنَّك لن تصبح سعيدا معها، حذرتك كثيرا لكنَّك لم تصغي إلى كلامي لا بل و ضربت به عرض الحائط متعاليًّا، متفاخرا بحب، كنت مخدوعا فيه أصررت على ارتباط، كنت أعلم أن ستملُّ يوما، ستندم، سيتلاشى حبُّكم المزعوم، و ستراها عادية و أنظر إلى النتيجة هذا ما آل إليه حالكم، هل رأت بعينيك ممَّا كنت خائفة ؟ قل ؟ لقد حاربت عائلتك و أمَّك لأجلها، هل رأيت ؟ هذا هو سوء اختيارك صاحت وفاء بأمها :

- كيف تقولين هذا يا أمِّي ؟، نجلاء بنت محترمة و طيِّبة، لا تسمع كلام أمِّي يا خالد فزوجتك لا تعوَّض بكنوز الدنيا.

وبَّختها أمُّها :

- ألا زلت تدافعين عنها ؟ أنظري إلى حال أخيك و ستفهمين.

- أمِّي لا تزيدي الطِّين بلَّة.

كلمة من وفاء و كلمة من أمِّها أمَّا خالد فقد اعتراه الصَّمت و لم يدري ماذا يقول ؟ أحسَّ بثقل كمن أصبح داخل دوَّامة كبيرة و لكأنَّ الأرض تدور من حوله، أصوات فقط كانت تعلوا في تلك الغرفة

صرخ بصوت عالي :

- أسكتوا لست بحال جيِّد كي أسمع كلَّ هذا، أنا متعب.

ثمَّ واصل قائلا :

- تبًّا، تبًّا لكلِّ شيء .....

صفق الباب خلفه بغضب، لكنَّه لم يعلم أغضبه هذا بسبب أمِّه أم وفاء أم نجلاء أم على نفسه ؟.

كان غاضبا جدًّا، لكنَّه لا يدري أهو غاضب من كلام أمِّه ؟ أم من نجلاء، يحسُّ بالذنب بسبب فعلته لكن لم يجبره أحد على ذلك، يم يكن يدري كيف يواجه ميساء ؟ بعد أن تراجع عن لقائها.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

غيمة سوداء حلَّقت فوق رؤوس الجميع، مضى هذا الأسبوع كدهر، تعاقبت فيه جميع الفصول مضى الهاتف يرن السَّاعة الثَّامنة صباحا، وفاء تتصل :

- أهلا وفاء.

- أهلا حبيبتي نجلاء.

- كيف حالك ؟ هل أَيقظتكِ من النَّوم ؟.

- لا أنا مُستيْقظة منذ الصَّباح الباكر.

- آه، جيِّد عندي لك خبرين مفرحين.

- ماذا هناك يا نجلاء ؟ أَسْعديني مَعكِ.

- لقد حدَّدنا أنا ومُحَمَّد ميعاد الزَّفاف وبعد يومين سنكون بقفص واحد.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- هل تتمزحين ؟ كيف ستلحقين في هذا الوقت القصير و الضيِّق ؟.

الوقت ضيق جدا ولن يلحق ابدا لكي تجهزي اغراضكِ يا حبيبتي

- سنتدبر أمورنا، و في الأغلب سيكون حفلا بسيطا يضمُّ الأهل و بعض الأصدقاء فقط.

- فرحت لأَجلكِ جدا يا وفاء، زواج مبارك عَليكِ أنتِ ومُحَمَّد.

- شكرا يا نجلاء، لكن لم تسأليني ما هو الخبر الثاني ؟

- أعتذر منك حبيبتي، من الجلبة و فرحتي بما سمعت نسيت أن أسألك، ها ماذا هناك ؟ كانت وفاء متلهفة إلى اخبار نجلاء بالأمر.

- هيَّا قولي.

ضحكت وفاء وقالت :

- تَوسلِي لكي أُخبركِ.

- أوف منْكِ يا وفاء ليس لديَّ مزاج للضحك والمزاح هيَّا أخبريني.

- مُحَمَّد !.

- ما به مُحَمَّد ؟

- مُحَمَّد قد وجد تاريخ ميلادك في سجل المشفى وقد حصل على عنوان و رقم المرأة التي أخذتك الى المشفى

يوم ولادتكِ

- ماذا ؟ ماذا ؟

كرِري ما قلتي، أنت تمزحين !

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- ....

- هل أنْتِ تمزحين يا وفاء ؟.

- لا، ليس معقولا أن أمزح في أمور كهذه، أقسم لَكِ أنَّني جديَّة.

- لكن متى حدث هذا ؟.

- أنا أيضا تفاجأت بالخبر ؟

- أخبريني بكل شيء بالتَّفصيل المِمِّل كيف ومتى حصل هذا ؟ و من تكون هذه المرأة ؟

- حسنا، اهدئي و استمعي لكلامي جيِّدا، اليوم اتَّصل بي مُحَمَّد و أخبرني بالأمر، في بادئ الأمر لم أستوعب ظننته يمزح لكن عندما شرح لي الأمر و زوَّدني المعلومات التي كانت مطابقة ليوم

ميلادك تأكدت من كلامه، فلم أمهله أن يكمل كلامه بل استأذنته و أنهيت مكالمته و اتصلت بك على عجل حتَّى أبلغك هذا الخبر الجميل و المفرح.

- يا إلهي يا وفاء، أنت لا تعلمين ما هو شعوري في هذه اللَّحظة ؟ لا أعلم أأبكي ؟ أم أفرح ؟

أأصرخ عاليًا ؟ أم أطلق زغرودة يسمعها العالم بأسره ؟ شيء بداخلي لا يوصف، مشاعر مشوشة لن أستطيع أن أعبِّر عنها.

أحسَّت أنَّ جميع مشاكلها تلاشت للحظة و كأنَّها ولدت اليوم، فرحتها كانت أكبر من أيِّ شيء في العالم، لو كان بإمكانها لحلَّقت كفراشة لتنشر سعادتها عبر جناحيها الملونتين، أتى هذا الخبر في آخر لحظة فانتشلها من بين أحزانها، شعرت بدفعة بأمل و أنَّ العوائق اختفت كلُّها، تخيَّلت شكل أهلها و كيف سيكون لقاؤهم ؟ هل سينبسطون من رؤيتها ؟ كانت تريد الذهاب الآن قبل أيِّ وقت آخر، كي تثبت للجميع أنَّها هي أيضا تملك أهلا وتمشي رافعة الرَّأس بفخر، أصبحت على بعد خطوة واحدة من تحقيق الحلم الذي لطالما كان يراودها كلَّ ليلة عندما عوملت بقسوة و جفاء في الميتم استعادت شريط حياتها المأساوية تشكي الاحتياج و الضرب الذي تلقته، القهر و سوء المعاملة شردت بعيدا، بعيدا ونسيت أنَّ وفاء على الخطّ :

- نجلاء أَيْن اخْتفيتِ ؟.

- أنا معَكِ يا وفاء، لكن سعادة لا توصف تغمرني، لا أعرف ماذا أَقُول لك ؟.

- يا حبيبتي أحس بك عندما سمعت الخبر فرحت كثير و كأنَّني أنا من وجدت عائلتها.

- انت اختي التي شاركتني حزني يا وفاء، لكن ماذا أفعل الآن ؟ كيف لي أن أقابل هذه المرأة ؟

و إذا ما تجرَّأت و قابلتها ماذا سأقول لها ؟ عمَّن أسألها ؟.

- ....

نور الإيمان عباس بدراعة على فارعة ذئب

كيف لي أن أذهب وأقابل أنيسة ؟ و ماذا أسألها عن أهلي ؟ و إذا ما وجدتها مؤكد أنَّه يجب عليَّ الذهاب إلى الميتم الذي وضعتني في تلك المرأة و أجد تلك المديرة القاسيَّة، هل سأستطيع النظر افي وجهها الذي يشبه الجلاد ؟.

- من قال لَكِ أنَّ المديرة لم تتغير ؟ لقد مرَّ وقت طَويلٌ.

- أعلم أنَّها لم تتغير، فقد كنت أزور الأطفال في الميتم حتَّى أتفقدهم و قد كانت تقف بطلَّتها الشريرة لم تتغير ملامحها أبدا لازالت، كلَّما حدَّقت فيها عادت بي ذاكرتي للوراء.

- لا تعكِّري مزَاجكِ يا نجلاء، افرحي بالخبر وانسي كلَّ شيء كان بالماضي فهو مجرَّد عقبة و ادفنيه لأنَّ حياتك سوف تبدأ من جديد، ستجدين عائلتك يا حبيبتي والرقم أرسله لي مُحَمَّد عبر رِسَالة نصيَّة سأبعثه لَكِ الآن يا حبيبتي.

- أنا لست مُصدِقة بعد، أصحيح الخبر الذي قاله لَكِ مُحَمَّد ؟.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

ضحكت وفاء قائلة :

- اطمئني، صحيح هذا الخبر يا نجلاء، أقسم لَكِ أنَّه وجد تطابقا لتاريخ ميلادك في سجلات المشفى

لكن سوف أتأكد منه و سأزودك برقم المرأة و لن تضطري للبحث في كلِّ مكان، لا تَتوترِي أبدا بقي القليل، القليل جدًّا، لولا استعداداتي لزفافي لكنت رَافقتكِ يا حبيبتي.

- لا داعي لِذلكْ، ادعي لي فقط أن يمرَّ كلُّ شيء بخير.

- قبلاتي و دعواتي معكْ يا نجلاء.

- أسعدك الله أنت و مُحَمَّد و وفقكما.

- ها نجلاء، هل ستخبرين خالد ؟.

- لا لن أخبره أيَّ شيء، هو لا يأتي إلى البيت منذ أسبوع و لا يتصل بي حتَّى كي يسأل عن ابنه سامي، كلَّ يوم يتحججُّ بالسفر لأجل العمل و أنا لا ألحُّ لأعرف أين يذهب ؟ و متى يعود ؟.

- أعلم يا نجلاء اخي تغير كثيرا لم يعد كالسَّابق لا يتصل حتَّى بأمّي و لا يزورها.

- أتعلمين أين هو الآن يا وفاء ؟.

- هو مقيم بفندق قريب من مكتبه.

غمغمت نجلاء :

- لا أدري أين يبيت هو ؟ كانت تودُّ أن تخبرها عمَّا يفعله و أنَّه يخونها و لا يهتمُّ بها بل حتَّى لم يعد يحادثها منذ آخر نقاش حصل بينهما، لكنَّها تردَّدت و خجلت من نفسها لم تودَّ أن تجعلها تعيسة خصوصا أن زفافها بعد يومين و هي تحبُّ مُحَمَّد و قد رأت فيها هي و أخيها خالد مثال يحتذى به في الحب فلا تستطيع أن تحطِّم آمالها، تنهدَّت تنهيدة عميقة زفرت معها كلَّ الآهات و قالت :

- لا تهتمي لا يوجد شيء مهم، الآن فكِّري في نَفسكِ و لا تَكترثِ لأيِّ شيء من حولك.

- أنت أيضا يا نجلاء اهتمي بِنفْسي كثيرا سنلتقي قريبا مؤكَّد هذا.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- أنْتِ أيضا قومي بإعداد كافة ما يلزمك ليكون الزفاف جميلا مثْلكِ يا ملاكي.

- بإذن الله.

- مع السَّلامة.

****

فكَّرت أن تزور طبيبها النفسي أيمن الذي كانت تتردَّد عليه قبل زواجها لكن بعد ذلك انقطعت عن رؤيته حتَّى خالد لم يكن يدري بأمره، كالنت تخشى إن هي أخبرته سيراها مجنونة أو أنَّ أمَّه تعلم فتعايرها أكثر، فالطبيب النفسي في مجتمعنا لا يزوره إلاَّ المرضى و المجانين.

كانت تتوجه إلى الطبيب بسبب الأمور التي حدثت لها بالماضي، ولم تستطيع تجاوزها وحدها فاضطرت للاستعانة به لتنسى أو على الأقل تتناسى المآسي التي واجهتها ليس فقط ضرب وحرمان بل أبشع بكثير من ذلك و حتَّى تتخلص من الكوابيس التي جعلتها تسهر اللَّيالي، أصبحت لديها عقدة ممَّا مرَّ عليها هي والكثير من الأطفال في الميتم فقد عانوا الاستبداد والعنف و التحرش، كان لا يشبه الميتم أبدا عبارة عن نزوات وجرائم ترتكب في حق الأطفال الصغار يستغلونهم تحت مسمَّى البراءة.

قرَّرت و أخيرا بعد تردُّد طويل أن تزوره غدا، رنَّ هاتفها، نظرت إلى شاشته، المتصل صاحب المعرض، ردَّت عليه فقال لها :

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- مساء الخير سيدة نجلاء.

- أهلا بك، كيف حالك أستاذ فاروق ؟.

- أنا بخير، شكرا لك.

- هل يُوجَد خَطبٌ ما ؟.

- لا وددت إخبارك فقط أنَّ افتتاح المعرض سيكون بعد يومين إذا بإمكانك الحضور !.

- أنا آسفة، لا يمكنني المجيء لأنَّني مشغولة بزفاف ابنة حماتي وفاء، لهذا السَّبب لن أستطيع القدوم خلال هاذين اليومين.

- ولكنِّي أريد رقم حساب البنك خَاصتكِ.

- هل بإمكاني أن أعطيك رقم حساب الميتم ؟ فأنا أريد أن أتبرع بنقود اللَّوحات لصالح دار الأيتام التي كبرت فيها !.

- ليست لديَّ أيَّة مشكلة سيدة نجلاء أرسلي لي فقط رقم حساب دار الأيتام و أنا سأهتم بالباقي و سأرسل النقود لهم.

- شكرا لك سيد فاروق، ممتنة لك، نتحدث لاحقا.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

كانت تشعر بتشنج في أفكارها، يعتريها الدهشة و الذهول ممَّا يتعرف و شعرت بالقليل من الأمان

الذي فقدته مذ كانت صغيرة، بل منذ أن فتحت عينيها على هذه الدنيا فقدته منذ فترة بل منذ كنت صغيرة بل منذ ان فتحت عينيا على هذه الحياة التي اذاقتني من المر حتى اكتفيت كنت تمشي ذاهبة إلى عيادة الدكتور أيمن الذي لم تره منذ سنوات، وصلت إلى عيادته رحَّبت بها الممرضة لقد تذكرتها، ثمَّ جلست تنتظر دورها، وعندما حان موعد دخولها نادتها :

- آنسة نجلاء، لقد حان دورك فتفضلي، الدكتور أيمن بانتظارك.

- حسنا، أنا قادمة.

- مرحبا دكتور.

قام أيمن من كرسيه و هو يبتسم :

- نجلاء، هذه أنت، أهلا و سهلا بك، ما هذا الانقطاع فجأة ؟ لم أَركِ منذ سنوات يا نجلاء.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- أعتذر منك، أعلم أنَّك تعتب عليَّ، لكن لم تتسنى لي الفرصة لكي أزورك بعدما تزوجت بل أصارحك بالأمر أنِّي لم أكن أملك من الشَّجاعة ما يكفي كي أخبر من حولي أنَّني أزور طبيبا نفسيا.

- مَعكِ حق، أنا لا أَلومكِ بخصوص هذا الأمر أبدا، فأنا على دراية بتخلف المجتمع الذي نعيش فيه، ما شاء الله لقد أصبحت فتاة كبيرة و جميلة و تَزوجتِ يا نجلاء ابتسمت بِخجَل و قالت :

- بل و أصبحت أمًّا أيضا.

- صدقا يا نجلاء، ما شاء الله، هل مضى الكثير من الوقت على عدم لقائنا حتَّى فاتتني كلُّ هذه الأحداث ؟.

- طبعا، مضى سبع سنوات يا دكتور.

- أخبريني ما اسم ابنك و كم عمره ؟ و هل هو جميل مثلك ؟.

- اسمه سامي و عمره ستَّة سنوات، بدأ يرتاد المدرسة، لا يشبه أباه كثيرا، لكنَّه يحمل القليل من ملامحي.

- كيف حالَكِ ؟ و كيف حال نَفسيتكِ ؟ آمل أنَّك بخير.

- كيف حالي ؟ لا أكذب عَليْك فقد أصبحت مؤخرا تراودني نفس الكوابيس التي كنت أعاني منها كثيرا في الماضي لم تفارقني في الفترة الأخيرة أبدا، خاصَّة في آخر يومين بعد زيادة توتري من جهة وضغط المشاكل من جهة أخرى.

- لماذا يا نجلاء ؟ ماذا حدث ؟ اجلسي على ذلك المقعد و تكلَّمي لكي ترتاحي، في بادئ الأمر كانت خجلة من أن تخبره بماذا فعل لها خالد و أنَّه أصبح يخونها لأسباب واهية، تافهة ثمَّ شجعها أيمن على الكلام، فبدأت تقصُّ له كلَّ ما حدث معها ....

عندما أنهت كلامها تنهدت تنهيدة زفرت معها كلَّ التعب و الوجع الذي كانت تحمل كعبء يثقل صدرها و قالت له :

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- الآن أصبحت أشعر بالرَّاحة و لو قليلا و ارتاحت نفسيتي اليوم يا دكتور بسبب حديثي معك، وأيضا هناك خبر مفرح تلقيته، فقد أخبرتني وفاء أخت زوجي أنَّ خطيبها وجد رقم المرأة التي أتت بي إلى المستشفى و سلَّمتني إلى دار الأيتام في تلك اللَّيلة.

- هل هذا صحيح يا نجلاء ؟.

- طبعا يا دكتور صحيح، أنا أيضا لم أصدِّق مثلك لكن ما لبثت أن تأكدت فطِرتُ من الفرحة ورقم المرأة معي لكنَّني لم أشأ أن أستعجل و أتَّصل بها.

- اتصلي بها يا نجلاء ماذا تنتظرين ؟ ألم يكن هذا هاجسك منذ الصغر إيجاد طرف خيط يوصلك لأهلك ؟ التقي بها واسمعي كل شيء منها يمكن أن تكون قَريبَتك أو تكون على صلة مع أَهلكِ.

- لم أشأ أن أفعل أيَّ شيء دون أن أخبرك و أسْتشِيرك فيه.

- جيِّد ما فعلتي، عودي إلى البيت واتصلي بها واعرفي منها كل شيء اعرفي الحلقة المفقودة بحيَاتكِ، لا تهدري الوقت.

- سوف أتصل بها، الأرض لا تسعني من الفرحة، لا أعرف كيف سأكلمها ؟ وماذا أقول لها ؟.

- لا تتوتري، قولي كلَّ شيء كان محبوسا دَاخلكِ منذ ستة وعشرين سنة، اسألي كلَّ ما تُريدِين.

غادرت نجلاء العيادة وشكرت الدكتور أيمن على نصائحه القيِّمة، أوقفت سيارة أجرة، طول الطريق و هي تفكر، عندما وصلت للبيت كان سامي لا يزال نائمًا لم ترغب بإيقاظه وجلست تبحث عن رقم المرأة المدعوة أنيسة ضغطت على الأرقام و يديها ضغطت بعدها على زر الاتصال الأخضر وبعدها ألغت الاتصال كرَّرت تصرفها لمدَّة تتجاوز الربع ساعة بسبب توترها لم تكن مستعدَّة بعد لمواجهتها.

ظلَّت تهرب من قلقها القابع داخلها وكأنَّها غارقة في دوامة و أخيرا قررت أن تتصل رفعت سمَّاعة الهاتف بإصرار هذه المرة شهقت و زفرت بعدها، رن هاتف أنيسة لكن بدون أيّ رد لأربع مرَّات متتالية، قرَّرت أن تكون هذه الأخيرة لأنها يئست، فجأة ردَّت عليها امرأة كبيرة في السن هذا ما بدى على صوتها.

- ألو، ألو من معي ؟.

شعرت نجلاء بالفرحة تتملَّكها، شيء ما لامس قلبها لم تُصدِق أن تلك المرأة ردَّت عليها حتَّى نبرتها كان يبدو عليه السعادة والقلق معا.

- مرحبا، السَّيدة أنيسة ؟.

- طَبعًا أنا هي، فمن أنْتِ ؟.

- أنا اسمي نجلاء و أريد أن تُساعِديني بموضوع في غاية الأهمية فهو بالنسبة لي سيحدِّد مصيري و يغير مجرى حياتي.

نور الإيمان عليك براءة على قارعة ذنب

- ما هو ؟ تفضلي يا ابنتي كيف يُمكِنني مُساعدكِ ؟.

- أنا فتاة قد قمت بوضعها في ملجأ للأيتام و أريد معرفة بعض الأمور المهمَّة عنِّي مِنْك، لكنَّني أريد مُقابلتِك وجها لوجه، ثمَّ استدركت قائلة :

- طبعا إذا أحببت هذا، لكي نتكلم الموضوع طويل جدًّا و لا يقال بالهاتف، فهل أنْتِ متفرغة للقائي يا خالة ؟.

- طبعا، لا بأس بذلك، غدا أنا متفرِّغة تماما.

- إذنْ سوف أَزورك إن شاء الله.

- أهلا بك يا ابنتي، البيت بيتكِ، لكن دوِّني عنواني عندك حتَّى لا تتعبي نفسك بالبحث.

- حسنا، قولي أنا أسمعك ....

كانت كلماتها تدلُّ على طيبتها، ودَّعتها على أمل أن تلقاها غدا، كانت نبضاتها تتراقص من الغبطة.

نور الإيمان عباس براءة على قارعة ذنب

- يا ترى من القادم في هذا المساء ؟.

تأكدت من الطارق قبل أن تفتح البيت ، كان هذا خالد رجف قلبها وتضاعفت دقاته و أحسَّت بالاشتياق له وكأنها لم تره منذ سنة.

خالد لم يعد للبيت منذ أسبوع لهذا حبَّذ أن يطرق الباب أولا، رنَّ مرَّة ثانية و ثالثة بدون أن تفتح، كان يعلم أنَّ نجلاء لا تريد أن تفتح له الباب، لكنَّه رغم كلِّ هذا فقد اشتاق إليها هي و ابنه سامي، أخيرا فتحت الباب، في تلك اللَّحظة تواجهت أعينهما تمنَّى لو أنَّها بادرته وعانقته و ضمَّه إليه صمتا كلاهما كغريبين.

لم تكن نجلاء مضطرَّة للبقاء في البيت إلاَّ أنَّ سامي كان المانع الوحيد و العائق الذي يحول بينها وبين قرارها هذا، كان خالد يريد أن يقول كل ما يجول في خاطره لكنَّه لم يتشجع على الافصاح بما يريد وفجأة سألها قائلا :

- أين هو سامي ؟.

- إنَّه نَائِم.

- حسنا، غدا جهزي نَفسكِ سأمرُّ لكي آخُذكِ أنْتِ وسامي.

أجابته نجلاء بجفاء و عدم مبالاة :

- خذ أنْتَ سامي أمَّا أنا لديَّ بعض الأمور سأنهيها و ألحق بكم إلى قاعة الزفاف.

- أوك، ليكن ما تريدين، و سكت و لم يسألها أيُّ الأعمال لديها حتَّى لا تستطيع تأجيلها و زفاف أعزِّ صديقة و أخت على قلبها غدا، بل توجَّه إلى غرفته حتَّى يغيِّر ملابسه و يرتاح.

وتوجه إلى غرفته بعد غياب دام أسبوعا عن البيت، قرَّر أن ينام في بيته اللَّيلة، لم تمانع نجلاء بل كانت تفكر بالغد فحياتها ستتغير وفقا لما سيحصل، أرسلت لوفاء رسالة تتمنى لها يوما جميلا وأخبرتها أنَّها ستزور تلك المسنة المدعوة أنيسة حتَّى تحكي لها قصَّة أهلها وتدلها عليهم، فرحت وفاء بما سمعته فقالت لها :

نور الإيمان عباس براءة على قارعة ذنب

- لا تقلقي يا نجلاء ،خذي كلَّ وَقتكِ لن أغضب منْكِ يا حبيبتي بالعكس أنا أقدِّر ما تمرين به يا نجلاء، أنسيت أنَّنا كنَّا ننتظر هذه اللَّحظة منذ سنوات ؟.

- فرحك هو فرحي تصبحين على أحلام محققة بإذن الله.

****

التَّاسع من أَيلُول 2015

أتى اليوم الذي كان على نجلاء أن تذهب فيه لمقابلة تلك السيِّدة تلك المسمَّاة أنيسة، ليلتها لم تنم أبدا من توترها الشديد تنتظر شمس صباح اليوم التالي بفارغ الصبر، تملؤها مشاعر متناقضة خوف و ارتباك و فرحة عارمة تكاد تقفز بها لأعالي السَّماء فقد كانت تنتظر ذلك اليوم بلهفة، كانت متردَّدة لكن ينبغي عليها أن تذهب لتكشف حِقبَة طفولتها فعليها إيجاد تلك النقطة الفاصلة في حياتها والأجوبة لأسئلتها المبهمة التي عبثت بها و كانت تربكها لكي تلوذ بالنوم مطمئنة البال و تكمل بقية حياتها مرتاحة، كان هذا أكبر عهد قطعته بينها و بين نفسها و عليها أن توفي العهد.

استيقظت بمعنويات مرتفعة، كانت تمنِّي نفسها قائلة إن هي وجدت أهلها سوف تحضر عرس وفاء مرفوعة الرَّأس دون أن يتطاول عليها أحد أو تخدش كرامتها و كبريائها، لكن داخلها شعور بالخوف، بالعجز، بالخيبة، بفقدان أملها الوحيد و أن ترجع خائبة مكسورة، كانت كمن يحمل جمرة بين كفَّيه تتعلَّق بخيوط واهية بسبب ماضيها الذي طالت أغصانه و امتدَّ ظلاله السَّوداء ليعكِّر صفو حياتها ذلك الصَّباح الذي انتظرته كثيرا وخشيت مجيئه كثيرا، أعدَّت الفطور بسعادة تغمرها تنبع من أعماق روحها بمسرَّة و رضا تام، أصبح وجهها بشوشا، ضاحكا، أحسَّت بالغبطة و حسن الحال فقد ابتهجت و انفرجت أساريرها بمجرَّد أن لمحت أنَّ سامي و زوجها استيقظا، هذه لم تكن حالها في الآونة الأخيرة خاصَّة بعد الفجوة التي كانت بينها و بين خالد، تعجَّب خالد من حالها لكنَّه لم يعرف السَّبب وراء ذلك غير أنَّه بينه و بين نفسه كان مسرورا لها و تمنَّى لها أن تكون هكذا دائما، كما تمنَّى في قرارة نفسه أن تتخلَّى عن البحث عن أهلها حتَّى لا تصاب بخيبة رجاء و لا تنكسر من جديد ككلِّ مرَّة، لكنَّه لم يكن على درايَّة بأنَّها وجدت طرف خيط سيوصلها إليهم على حدِّ اعتقادها، أمَّ هي فكانت تبحر في عوالم أخرى بعيدا عمَّا كان يفكِّر فيه خالد، تدندن بكلمات غير مفهومة، جلس الجميع على طاولة يتناولون الفطور، منذ مدة لم يلتمَّ شملهم مع بعض.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

جهزت نجلاء سامي لحفل الزفاف، عطَّرته أمَّا خالد فقد لبس طقمه تمنَّى لو رافقته نجلاء حتَّى يتصالحا ويغلقا الفجوة التي طالها يد الوقت، لكنَّها أخبرته أنَّها ستلحق بهم عندما تنهي عملها، طبعت قبلة على خدِّ سامي و على جبينه و حضنته بحنان :

- أنْتَ وسيم جدًّا اليوم يا حبيبي، اهتمَّ لنفسك، عانقته و قبَّلته.

وذهب مع أبيه، لكنَّ خالد لم يكن مطمئنا من الوضع بداخله شعور أن ثمة خطب ما بنجلاء، ارتدت ملابسها بسرعة بعد مغادرتهم كي تغدوا متوجهة للقاء أنيسة، أوقفت سيارة أجرة كي تقلها إلى العنوان المطلوب.

وفاء فكانت تستعد هي و أخواتها و أمُّها واضعين آخر اللَّمسات على تجهيزها، سعيدة بارتباطها مع مُحَمَّد أمَّا هو فلم تكن الأرض بوسعها تسع فرحته الغامرة، في هذه الأثناء كان خالد قد وصل أخذ يراقب الترتيبات عن كثب لمحته أمُّه في الصَّالة جالسا شارد الذهن فاتجهت نحوه سائلة إيَّاه :

نور الإيمان عبلس براءة على قارعة ذنب

- أين هي نجلاء يا خالد ؟ لماذا لم تأتي معك ؟.

هذه المرَّة أسلوبها اختلف تماما عن سابقه، تغيرت ناحيتها من آخر حوار بينهم قرَّرت أن تتقبل الأمر الواقع و لا تتدخل في حياتهما ،أجابها خالد بحيرة و تعجُّب :

- قالت أنَّ لديها عمل، و ستأتي فور أن تنهيه !.

- أيُّ عمل ؟.

سكت و أمسك يد أمِّه و ضمَّها ليقبلها و قال لها :

- أمِّي أنت تعبت لأجلنا و تحملتني كي أصبح رجلا ناجحا، تعلمت منك الصبر، رغم كلِّ المشاكل التي حلَّت عليَّ، لا أُخفيكِ أنني غضبت منك، لكن أرجوا أن تُسامِحيني.

- كيف لي أن لا أسامحك و أنْتَ فلذة كبدي ؟.

كلُّ من كان حاضرا في الحفل مسرورين تطوّقهم السَّعادة، نجلاء فقط كانت هي الغائبة الوحيدة ظلَّ خالد قلقا عليها، يفكّر فيها، لكن أخفى هذا الشيء، وصلت نجلاء إلى المكان الذي كان مدوَّنا على الورقة، لكنَّها لم تعلم أيَّ بيت هو فيهم لأنيسة، فقرَّرت أن تسأل أجد المارَّة :

- عفوا سيدي !.

- تفضلي يا سيدتي !.

- هل بإمكانك مساعدتي ؟ فأنا أبحث عن عنوان بيت امرأة مسنَّة، أملك عنوانها لكن لا أعرف أي بيت هو بيتها، كانت تتلعثم من شدَّة التوتر :

- ما اسمها ؟

- اسمها، اسمها أنيسة.

- أعرفها، إنَّها القابلة .

نور الإيمان عباس براءة على قارعة ذنب

- استغربت نجلاء فهي لم تكن تعرف أنَّها تعمل قابلة.

- هل أنْتَ متأكد ؟.

- طبعا، متأكد لا يوجد اسم آخر لأنيسة غيرها، هي معروفة هنا، اتبعيني سأدلك على بيتها، وصلا للبيت المقصود، فقال لها :

- هذا هو واستأذنها بالذهاب.

- شكرا كثيرا لك.

- لا عادي، في الخدمة أنا.

وعاد أدراجه، أمَّا نجلاء كانت سعيدة جدًّا وكأنَّها في حلم و ليس حقيقة، لم يعد يفصلها شيء عن معرفة من هم أهلها سوى خطوة و طرق باب، وضعت يدها على زر الجرس وهي ترجف من السَّعادة، دقت الجرس وانتظرت قليلا، سمعت صوتا من بعيد يقول :

- أنا قادمة.

فتحت الباب و إذ بعجوز كبيرة في السن أكل الدَّهر عليها وشرب تطلُّ عليها مبتسمة، كان نظرها ضعيفا جدًّا، هذا ما عرفته من حركات يديها فقد كانت تتحسس الأشياء قبل فعلها، سألتها نجلاء بتوتر قائلة :

- أأنت أنيسة ؟.

أجابتها متسائلة :

- أنا هي أنيسة، فمن أنْتِ يا ابنتي ؟.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- أنا نجلاء، كنت قد اتصلت بك أمس.

- أعتذر منْكِ يا ابنتي هذا تأثير كبر السِّن عليَّ، بدأت أنسى و أصبح نظري ضعيفا كما ترين، أدخلتها بيتها، كان صغيرا، يبدو أنَّها تعيش لوحدها، جلست على مقعد و دعت نجلاء للجلوس مقابلها و قالت لها متسائلة :

- كيف لي أن أُساعدكِ يا طِفْلتي ؟.

من ملامحها تبدو طيِّبة و مسالمة على الرَّغم من كبر سنِّها و التجاعيد التي ارتسمت على وجهها وهذا ما جعلها تشعر بالرَّاحة و الاطمئنان، قطعت نجلاء شرودها قائلة :

- جئت إليك متقصدة أن أسألك عنِّي و عن ماضيَّ، أنا من سنوات عدَّة كنت أعيش في دار الأيتام و بعد أن كبرت صرت أبحث عن أهلي، بعد ذلك ساعدني شخص يعمل في المستشفى

وبحث في السِّجلات القديمة فوجدك و توصَّل إلى رَقمكِ وعنوانك لأنَّك أنْتِ من قمتي بإحضاري إلى المستشفى في تلك اللَّيلة و بعدها سلموني لدار الأيتام.

- أيُّ ليلة تقصدين ؟ لا أتذكر كَثيرًا.

- أَرجوكِ تذكري فمصيري بين يَديْك.

- أيَّ سنة كانت تِلكَ يا ابنتي ؟.

- كان التاريخ آنذاك العاشر من شباط سنة 1990.

سكتت القابلة أنيسة و التزمت الصَّمت أو ربَّما عادت بذاكرتها للوراء، تسترجع الماضي، بعد دقائق من السكون الذي اعتراها نطقت :

- أظنُّ أنِّي جلبت في ذلك التاريخ طفلة إلى المستشفى بعد أن قمت بتوليد أمِّها، لم تدع نجلاء المسنَّة تكمل كلامها و لم تكترث بالبقيَّة و أمسكت يدها فرحة و الدُّموع تنهمر من عينيها قائلة :

نور الإيمان عباس يراءه على قارعة ذنب

- أنا هي تلك الطفلة و أبحث عن عائلتي منذ سنين، و قد انتظرت هذه اللَّحظة كثيرا عانيت الكثير، عانيت الأمرَّين لكي أجد خيطا يقودوني إليهم ، أنت لا تعرفين الصعوبات التي واجهتني و أنا أعيش بدون أب ولا أم ولا إخوة ولا حتى جدة، لا يوجد من يحميني، منبوذة تماما لا أعرف أحدا، كنت أسكن في دار الأيتام مع أطفال كثيرين مثل حالتي فأسميتهم إخوتي.

سكتت أنيسة ....

- أخبريني أين هي أمّي و أبي ؟ أريد أن أراهم و أذهب إليهم، لا أريد أن أعود أدراجي إلاَّ وهم معي و بصحبتي.

سحبت أنيسة يدها من بين كفِّ نجلاء ونهضت مَفزوعة ....

- ماذا بك ألا تعرفينهم ؟ أَجيبيني على سؤالي ؟.

- أعرف أمَّك جيّدا، كانت شابة في مقتبل العمر تبلغ من العمر 19 سنة آنذاك، أتت إليَّ في إحدى اللَّيالي تبكي وتتوسل من أجل أن أساعدها لتلد، فقد جاءها الطَّلق في تلك اللَّيلة وتنهدت أنيسة تنهيدة عميقة، ثمَّ واصلت قائلة :

- لم أشأ الموافقة على طلبها، لأنَّني خفت فقد عرفت من ملامحها، عرفت ....

ودمعت عينيها وراحت تهزُّ بِرأسهَا هنا ....

تسارعت نبضات قلب نجلاء، شعرت أنَّ كلَّ ما فيها يرتعش من الارتباك و قالت لها بانفعال :

- أكملي ماذا عَرفتِ ؟ أَرجوكِ اكملي أريد أن أعرف كلَّ شيء عانيت و تحملت الكثير حتَّى أعرف قصَّتي، أَرجوكِ.

- عرفت أنَّها فتاة عزباء، أي ستنجب بدون رجل وجاءت إليَّ كي أولدها و أداري الأمر، أداري فضيحتها، صرخت نجلاء بأعلى صوتها من هول ما سمعته أذنيها :

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- لا لا لا كيف لي أن أكون طفلة من غير أب ؟، بكت فقد نزل الكلام على رأسها كصدمة كبيرة لم تتوقع أن تكون ابنة زنا، ابنة شوارع، لم تتخيل في يوم هذا، راحت تبكي وتصرخ وتمسك رأسها بكلتا يديها كانت تشهق و هي تقول :

- أنَّها جاءت إلى هنا كي تأخذيها إلى أهلها و تعرِّفها عليهم و ليس حتَّى تنصدم بالحقيقة، دمعت عيني تلك العجوز لبكاء نجلاء و نحيبها، حاولت أن تعانقها لكن دون جدوى من ذلك فقد كانت نجلاء في حالة عصبية شديدة، تبكي وتصرخ قائلة :

- تمنيت أن أموت ولا يحصل معي هذا، أحلم بأن لي عائلة ويوما ما سوف ألتقي بهم قتلوني مرتين المرَّة الأولى حين تخلوا عني و المرَّة الثانيَّة حين عرفت أنَّني ابنة إثم و ثمرة خطأ.

- لا يا ابنتي أمُّك لازالت على قيد الحياة، إذا شئت أعطيتك عنوانها لتذهبي إليها، صرخت نجلاء و الدموع تنهمر من مقلتيها كمطر غزير :

- لا أريد أيَّ شيء منها لقد حطَّمت حياتي، لم يبقى لي أيُّ أحد في هذا الكون.

للحظة فقدت نجلاء السَّيطرة على أعصابها، كانت تضرب رأسها لهول الصدمة على الحائط وتقول :

- كيف لي أن أكون بنات خطأ منهما ؟ ليتني لم ترى عيني النور مت داخل أَحْشاءها، لَيتكِ قتلتني في تلك اللَّيلة.

كانت تتكلم و هي غير مدركة لما تقول و لا تستوعب كلماتها، بدت آثار الصَّدمة عليها ....

- كيف لي أن أواجه الناس ؟ و أنا لقيطة، جئت نتيجة غلطة بدون أيِّ رغبة، كيف لي ذلك أجيبي على سؤالي ؟ كيف أخبر خالتي أمَّ خالد و أنظر إليها بعين الفخر، فأنا أصبحت الآن مكسورة الجناح، ستعايرني ليس هي فقط، بل العالم أجمع و سيدينونني بماضيَّ حتَّى ابني لن يهنأ بسبب الألسنة التي ستطاله بسببي.

تأثَّرت تلك العجوز و أحسَّت بمرارة ما تقول نجلاء وندمت أشدَّ الندم لأنَّها أخبرتها بالحقيقة وظلَّت تردِّد في نفسها، يا ترى لو كذبت عليها سيكون أحسن ؟ لو أخبرتها أنَّ أهلها قد أنجبوها في عائلة و تخلَّوا عنها لظروف ماليَّة أو اجتماعية ؟.

نزار الايمان عباس ببراءة على قارعة الذنب

- لا يا ابنتي احمدي الله لا تقولي هذا، الكثير من الأَطْفال مثْلكِ هذا قَدركِ، لا يد لَكِ فيه كل شيء مكتوب ومقدر علينا.

كانت مثل عصفور تئنُّ وتبكي، لملمت انكسارها وخيبتها.

وطأطأت رأسها ذاهبة مجهولة الهويَّة كانت تمشي بخطى متثاقلة وتبكي الصَّدمة، الخذلان، الخيبة والمعاناة، تبكي خطيئة حاملة إيَّاها على أكتفاها بصعوبة، وصلت للبيت، تعاني صداعا في رأسها جلست على سريرها و أخذت ألبوم الصور و تذكرت كلَّ شيء من يوم لقائها بخالد حتَّى زواجهم، يوم ولاد ابنهم سامي، أعياد زواجهم، تذكرت كم مرَّ عليهم مع بعض، حملت قميصه و ضمَّته إلى صدرها، سالت دموعها، ثمَّ توجهت إلى غرفة سامي، أخذت ثيابه و اشتمَّت رائحته و عانقت ثيابه، ثمَّ توجهت حاملة حقيبتها و بدأت بجمع ملابسها و أخذت بعض الثياب و وضعت قميص خالد

وبعض ملابس سامي كذكرى، و حملت حقيبتها و اتصلت لتحجز تذكرة ذهاب دون عودة إلى ذاهبة إلى المنفى ملتجئة تلوذ الأمان تَحتضِن خيبتها و خذلانها بين يديها، تركت كلَّ شيء ورائها، ماضيها البشع، ذكرياتها المريرة، آلامها، أوجاعها و تركت بما في ذلك ابنها سامي و حبيبها خالد و وفاء و كلَّ تلك المدينة فقد أصبح التواجد فيها يخنقها منذ أن اكتشفت حقيقة والديها و أنَّها ثمرة خاطئة لعلاقة غير شرعيَّة أو كما يقولون في مجتمعنا لقيطة بدون نسب و لا حسب.

****

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

الجميع كان يحتفل في تلك اللَّحظة فرحين، اتجه خالد نحو وفاء سائلا إيَّاها :

- أين هي نجلاء ؟ لقد تَأخرتْ كَثيرًا.

- ألم تخبرك ؟.

- ماذا تخبرني يا وفاء ؟.

- لقد ذهبت لرؤية أنيسة.

- من تَكُون أنيسة هذه ؟ فأنا لم أسمع باسمها من قَبلُ.

- أنيسة هي المرأة التي أحضرتها إلى المستشفى يوم ولادتها.

- لماذا لم تخبريني ؟ هل أنا آخر من يعلم ؟.

- كنت أعتقد أنَّ نجلاء أخبرتك بهذا المَوضُوع.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- سأذهب إلى البيت لأتفقدها.

- أنا أيضا قلقة جدًّا عليها يا خالد، عندما تجدها طمئني و لا تنسى أن تأخذ معك سامي فقد نام من شدَّة تعبه، حمل ابنه بيني ذراعيه وتوجه إلى البيت، كان خالد قلقا، طوال الطريق يفكِّر فور وصوله، حمل ابنه فتح الباب ووضعه على سريره بعد أن غطَّاه، ذهب إلى غرفته كي يبحث عنها، لكن لم يجدها، بحث في أرجاء البيت، حاول الاتصال بها لكن جاءه الردُّ سريعا :

- إنَّ الرقم الذي طلبتموه مغلق أو خارج مجال التغطيَّة، يرجى إعادة المحاولة بعد قليل.

ثمَّ ما لبث أن اتصل مرَّة ثانيَّة و جاءه الردُّ أسرع من ذي قبل :

- إنَّ الرقم الذي طلبتموه مغلق أو خارج مجال التغطيَّة، يرجى إعادة المحاولة بعد قليل.

فتح خزانتها كان يبحث داخلها بخوف والعرق يبلِّل وجهه، فوجدها فارغة من جميع الملابس، هل حدث ما توقعه ؟، فتح الدرج الأسفل الموجود في خزانتها و هو يرجف آملا أن تخيب ظنونه، فلم يجده، لم يجد جواز السفر، صرخ قائلا :

- لا، غير معقول أنّكِ رحلت و تخليت عنَّا يا نجلاء.

على إثر صراخه استيقظ سامي يركض حافي القدمين و هو يفرك عينيه، كان مرعوبا من سماعه لصوت بكاء، اقترب من أبيه خائفا فسمعه يقول :

- لا تذهبي، لا تتركيني فأنا أحبك، انتبه لوجود ابنه فعانقه وبكيا معا، كان يشهق بأعلى صوته :

- لم أستطع أن أُخبركِ أنّني أُحبكِ جدًّا، أنْتِ الهواء الذي أتنفسه، أنْتِ كلُّ حياتي، لا أَستطِيع العَيْش بدُونكِ.

انصدم سامي لما سمعه فقد علم أن أمَّه قد رحلت و تركتهم فقال بصوت مرَعُوب :

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

- هل تخلَّت عنِّي أمِّي كما فعل أَهلُها ؟.

كفكف خالد دموع ابنه و قال له :

- أمُّك تحبنا.

- هي لا تحبنا.

- لا تقل هذا يا ابني فهي تحبك.

- لا تكذب عليَّ يا أبي لو كانت تحبني ما كانت تركتني.

ضمَّه لصدره و هو يناجيها، حبيبتي ها نحن هنا وحيدين، تائهين في ركن منعزل نبكي ما تبقى لنا منْكِ و ننتحب على رَحيلكِ .....

السَّادس من حُزيْران 2017

في تمام السَّاعة التاسعة صباحا وصل البريد إلى خالد كالعادة، كان ينظر للرسائل بملل، رماها جانبا، لكن لفت انتباهه رسالة عليها طابع بريدي غريب لدولة أخرى، حملها باهتمام و نظر خلفها كان العنوان المدوَّن من فرنسا، علا حاجبه من التعجب و الحيرة مزَّق الظرف، كان يظنُّ أنَّها رسالة من شركة أجنبية، فتحها بشغف فوجد داخلها حزمة رسائل مع بعض، بدأ بتصفحها، كانت كلُّها مكتوبة بخط اليد، فخاب ظنه، بدأ بقراءة أوَّل سطر، اشتبهت عليه الكتابة ثمَّ قال :

- آه، إنَّه خطٌّ نجلاء، فزَّ من مكانه و اعتدل في جلسته و ركَّز، تسارعت نبضات قلبه، أخذ شهيقا و زفر بعدها كلَّ الآهات كانت عينيه تلتهم الكلمات بسرعة :

" خالد غاب الأمان منذ أن ابتعدت عني، أصبحت روحي خالية من كلِّ شيء، عارية تحتاج إليك حتَّى تغطيني، تدثر وحدتي و تحميني من خوفي و شوقي لك، منذ أحببتك أصبحت على قيد الحياة، كنت أخاف أن تمطر الحياة و أنْتَ لست معي، أمطرت السَّماء لكنَّني لم أجدك مشيت وحيدة، أتعلم أنَّني لم أقوى على البقاء ؟ حتَّى لا أحملكما ذنبي، فقد علمت في تلك اللَّيلة أنَّني ولدت بدون أب لقد صدقت أمُّك فأنا لست سوى ابنة غير شرعيَّة، كنت لا أطيق فكرة بعدنا عن بعض وها أنا اليوم أعيش بدونك، خالد أخبرني كيف هو حَالُ ابننا سامي ؟ أيأكل جيِّدا ؟ اهتم فيه لأنَّه ثمرة حبنا و قرَّة أعيننا، أيسأل عنِّي ؟ لا تحزنه، لا تقل له شيئا سوى أنَّني سأعود ذات يوم وأحضنه مطوَّلا، خالد .... ".

تأثر خالد ونزلت دموعه كان ينتظر رجوعها، معلَّقا على خيط أمل، فقد كان يأمل أنَّها ستعود، أدار الرسالة لكي يرى من أين هي ؟ ففوجئا و ذهل عندما رأى أنَّها آتية من باريس تحديدا والذي زاده ذهولا أنّ العنوان الذي خلفها هو عنوان مستشفى هناك، مسح دموعه و واصل قراءة الرِّسالة الثانيَّة :

" كيف حالك اليوم يا خالد ؟ أنا مشتاقة لك جدًّا و أحتاجك في هذا الوَقتِ، كنت أريد أن أخبرك عن البرد الذي بدأ مبكر هذه السَّنة و عن ليالي الشتاء الطويلة التي عِشتُها فيه و الحزن

نور الإيمان عباس براءة على قارعة ذنب

الذي يباغتني فجأة دون أيّ سبب و رغبة البكاء التي تتملَّكني طوال الوقت و أنِّي لم أنسى أيَّ شيء، كم سنلبث حتَّى نعود كما كنَّا، خالد لا تنسى أن تعتني بسامي .... ".

قرأ خالد الرسائل واحدة تلوى الأخرى كانت جميعها يتجاوز عددها الأربعين، دوَّنتها نجلاء على فترات متتالية، تحكي له فيها كلَّ التطورات و الأحداث، بقيت رسالة واحدة لم يقرأها مكتوبة بخط يد لكنَّه مختلف عمَّا قبل ليس بخط نجلاء بدأ يقرأ فحوى الرسالة بِشغفٍ و تمعنٍ :

- مرحبا، إلى خالد ....

" أعلم أنَّك تقرأ ومتلهف لتسمع أخبار زوجتك، أعلم أيضا أنَّك ميَّزت أنَّ هذه الرسالة ليست بخطِّ يدها، لا تقلق لن أُطِيل عليك كثيرا، أنا الممرضة التي كانت تعتني بنجلاء فأنا أعمل في المستشفى الذي كانت ترتاده و مؤخرا أصبحت تنام فيه أيضا نظرا لتدهور صحَّتها، أثناء فترة علاجها كنت ألاحظ يوميا أنَّها تطلب كميَّة من الأوراق البيضاء و قلم حبر جديد كلَّ أسبوع، كانت تكتب رَسائِل عديدة لكنِّي استغربت و لا ليوم واحد حاولت أن تبعثها حتَّى أنَّها لم تطلب طوابعا بريديَّة أو تكتب خلفها عنوانا كانت تحتفظ بالرسائل في درج بجانب السَّرير قريب منها حيث تنام و مرَّة من إحدى تلك المرَّات التي كنت أجلب لها الدَّواء و أساعدها في الأكل.

دفعني الفضول لأن أسألها لمن تكتبين كلَّ يوم ؟ فصمتت و لم تجبني لكنَّها نظرت إلى النافذة وأطالت شرودها ثمَّ زفرت بعمق وسالت دمعة على خدِّها، فلم أشأ أن أضغط عليها و بينما أنا أنظِّف المكان و أحمل صينيَّة الطعام أهمُّ بالمغادرة، جاءني صوتها ناطقا تقول بحشرجة خالد، وغرقت في سكوتها ثمَّ واصلت خالد زوجي، أكتب رسائلي إليه مذ وطئت قدماي باريس، لم أقوى على فراقه فكانت كتابتي للرسائل تخفِّف وحشتي وشوقي إليه، و عندما يستبدُّ بِيَ الوجع أختارها رفيقة حتَّى لا أتراجع عن قراري، رحت أنصت لها و أركِّز في كلِّ كلمة تقولها، العجيب أنَّ لمعة عينيها كانت غريبة لا أدري أكانتا تلمعان حبًّا، شوقا، ألما أم وجعا ؟ و بدأت بقصِّ قصة الحب الذي جمعكما وأخبرتني أيضا عن سامي فقد كانت تفتقده كثيرا لكنِّي لا أعلم سبب عنادها و رفضها محادثته مع أنَّني جرَّبت معها مرارا و تكرارا و أوصتني أن أرسل جميع الرسائل إليك إذا حدث ما لها

مكروه، تجمدَّ خالد عند هذه الكلمة و لم يقوى على المواصلة كانت دموعه تنهمر كلَّما واصل، أصابته قشعريرة في جسده و رجفة في يديه فلم يعد يقوى على حمل تلك الرسالة، ثمَّ تمالك نفسه بقوَّة و حاول أن يهدأ وواصل، كنت آتي إليها كعادتي كلَّ صباح فقط أصبحت رفيقتها بل صديقتها المقرَّبة بعد وفاء، طبعا وفاء أختك التي كانت تعني لها أكثر من أخت و ساعدتها كثيرا في موضوع أهلها وكانت مخبأ أسرارها و موطنها الذي تلتجأ إليه، كنت آتيها بالجرائد و المجلاَّت حتى تسلِّي نفسها، فقد طالت فترة علاجها وبدأت هي تملُّ من الجلوس في المستشفى، كما أنِّي توليت إحضار الأوراق و الأقلام أنا، لكن في ذلك الصَّباح بدت لي غريبة جدًّا فهي لم تهاتفني لتخبرني بطلباتها و لم تسأل عنِّي باقي الممرضات كما كانت تفعل عندما أتأخر عليها، فقلت في نفسي لربَّما انتكست وتوعكَّت صحتها من جديد، رغم أنني تركتها بالأمس في صحة جيِّدة، جهزت نفسي بما كانت تطلبه منِّي ، كما أحضرت لها أوراق رسم و ريشات كنت أعدُّها لها كمفاجأة، فهي لطالما أخبرتني بِعشْقها للرسم وحضرت لها صينيَّة الطعام حتَّى تتناول فطورها كما أنِّي جلبت لها دواءها، كنت أَحرِص على أن تتناوله في مواعيده فجسمها بدأ يتراجع، دخلت عليها الغرفة كانت نائمة على غير عادتها كالملاك تغفوا حتَّى ساعة متأخرة و هي التي كانت تستيقظ عند السَّاعة السَّادسة صباحا (كما أخبرتني أنَّ هذه هي عادتها كانت تستيقظ باكرا في البيت لتعدَّ لكليكما الفطور أنْتَ و سامي) و تنتظرني بلهفة، فتحت الستائر فلم تبدي ساكنا اقتربت منها بهدوء كي أوقظها، ناديتها باسمها فلم تجبني، اقتربت أكثر و انحنيت برأسي، قمت بهزِّها برفق من كتفها لكنَّها لم تبدي أيَّ ردَّة فعل، ارتبت لمست يدها كانت باردة، باردة جدًّا كتلك الغرفة، كبرود هذا العالم معها و قسوته عليها.

هنا أيقنت أنَّها توفيت و ذهبت روحها إلى السَّماء، (كنت أعرف أن هذا ما ستؤول إليه فقد تدهورت صحتها مؤخرا كثيرا فهي لم تستجب للعلاج لأنَّ معنوياتها كانتا منخفضة بسبب بعدها عنكم و قد أبلغني الطبيب هذا الكلام) طارت كنسمة خفيفة، و حمَّلتني أن أبعث لك بهذه الأمانة أنت و سامي."

مستشفى ساينت جريجوري المركزي، قسم أمراض الأعصاب، باريس

لم يتحمَّل خالد الخبر فقد نزل عليه كصاعقة، اغرورقت مقلتاه بالدموع فبكى و انتحب حتَّى علا صوته و فقد السَّيطرة على نفسه، شاخ فجأة لن يكفيه اللَّيل و لا النَّهار كي يرثيها توالت إلى مخيّلته كلُّ الذكريات، مرَّت أمامه كشريط سنيمائي، لازمته غصَّة في حلقه فلم يقوى على الكلام، أصبح هزيلا، شاحبا، تسارعت نبضات قلبه و شعر بِوخزٍ في الجهة اليسرى من صدره وأخذ يردِّد بحسرة و أسى :

-كيف لكِ أن تغادري الحياة بدوني ؟ كيف لا أكون آخر من ترينه ؟

-كيف لك أن تذهبي دون أن تسامحيني على أخطائي و تغفري زلاَّتي و طيشي و هَفواتِي ؟

كيف لي أن أحتمل العيش بدُونكِ ؟و أنا الذي لا أقوى على فعل أيِّ شيء بغيابك ؟

ما عسان أخبر سامي ؟ فقد قطعت له وعدا أنَّني سأجدك، ها قد أخلفت وعدي للمرة الثانيَّة بعد أن خيبت ظنَّك فِيَ يا نجلاء.

لقد قصَّرت بحقِّك و أذنبت لكنَّني و الله أُحبكِ جدًّا و بحثت عنك مطوَّلا لم أترك مَكانًا إلاَّ وسألت عنك فيه حتَّى في المدن الأخرى، بحثت حتَّى أصابني الجنون، ودخلت في كآبة كيف لك أن تتركينا أنا و سامي يا نجلاء ؟.

أنا لم أتعود بعد على غيَابكِ فكيف لي أن أصدِّق أنَّك قد رحلتي للأبد ؟ ها أنْتِ ذهبت إلى الغياب الأزلي، أَدرتِ ظهرك لنا و مشيت، و لم تتركي أيَّ أثر، حبنا هو حبل نجاتي الوحيد الذي كان ينقذني من عتمتي، الآن غادرتني دون عودة وتركتني معلَّقا، وحيدا، تائها كطفل فقد أمَّه و لا يعي ما يحدث من حوله، أنا الآن أهوي، أقع في دوَّامة، لا أعرف حتَّى كيف أصف شعوري ؟ فغدا الصَّمت رَفِيقي أبكي بدون صوت، و أضحك دون أيَّة تعابير على وجهي، يعتريني السُّكوت في أشدِّ اللَّحظات التي أحتاج فيها إلى الصراخ و البكاء و أئن بصمت.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

قلب الرسالة و الدموع تغالبه مفجوعا، فزعا، يداه ترتجفان، يتعرَّق كثيرا، فوجد خلفها صورة قد التُقطَت لهم قبل سنتين تجمعهم هو و نجلاء و ابنهما سامي و قد دوَّنت خلفها عبارة قصيرة، مقتضبة، مجحفة، و لكنَّها تحمل بعضا منها و من رائحتها.

" أحبكم جدًّا، آمل أن تسامحوني يَومًا ما ".

لتصبح باريس ملتقى العشَّاق نقطة فراق لنا و تنصب لك شاهدة قبر بجانب أَكْبر المعالم التاريخية فيكون برج ايفل شاهدا على مماتك.

لم تكن هذه الرسالة سوى ذرَّات غبار تتطاير في الهواء حاملة معها عبق رائحة نجلاء، ضمَّ الرسالة إلى صدره و شمَّ عبيرها و أريجها الذي نثرته معها و ترك العنان لمشاعره فذرفت عيناه الدَّمع و قال لها بأسى :

- أحبك يا نجلاء، سامحيني سنلتقي في الجنَّة.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

النهاية :

اغتيلت أحلامنا فجأة تحت مسمَّى ثمرة خَاطِئة حرمتنا حق طفولتنا دفعنا فيها الثمن، ثمن الماضي والحاضر الذي لم تقترفه يدانا، دفعنا ثمن تلك البراءة التي رميت على قارعة طريق، دفعنا ثمن انجابنا من غير هوية سوى لأننا ولدنا أبناء غير شرعيين، سوى أن واقعنا فرض علينا معايشة هذا وانتسبنا إلى قائمة الأطفال الذين بدون نسب وحسب، كبر كلٌّ منَّا بعقدة داخله، كانت تلك العقدة تكبر بتجاربنا مع الحياة و تلتفُّ حول أعناقنا كحبل يشنقنا كلَّما تحركنا، كبرنا مُشبَعين بالخيبة، متخمين بمأساتنا مع الحياة المريرة التي فرضت علينا ضرائب غالية.

نحن بشر محكوم علينا طيلة حياتنا بالإعدام، محكوم علينا أن نحمل ذاك الجرح العميق و من الصعب جدًّا التَّخلص منه.

ومن جهة أخرى واجهنا المجتمع بظلمه لنا و معاملتنا بأبشع طرق حتَّى أسماؤنا لم يكن لنا الحقُّ في قبولها أو رفضها فهي تختار لنا بطريقة مختلفة وعشوائية فقط لأنَّنا أبناء لقيطين يشبهون العدم فوجودنا في هذا المجتمع أشبه بالصِّفر لا فائدة منه.

نور الايمان عباس براءة على قارعة ذنب

نجلاء ذات العشرين ربيعا ابنة المجهول، فقد ولدت في حضنه و تربَّت في كنفه، جاءت ثمرة خطأ

أو كما يقولون ابنة لقيطة ولاقت صعوبات عدَّة جرَّاء هذا، فقد كان البعض يشيرون لها بإصبع الاتهام دون أن تعلم ذنبها، ذنبها فقد أنَّ والدها في لحظة خطأ اقترفا فعلا عوقبت هي عليه و حمَّلاها ما لا طاقة لها به فحكم عليها بالقصاص.

الكثير مثل نجلاء وغيرها من الأطفال عند اكتشافهم للحقيقة بأنهم أبناء غير شرعيين و أنَّ أهلهم رموا بهم إلى حاويات القمامات أو تبرعوا بهم لمكان بارد و قاسي يسمَّى الميتم و لم يكلِّفوا أنفسهم عناء البحث عنهم سيصدمون، فبعضهم ينتحرون ويضعونا حدًّا لحياتهم و البعض الآخر يموتون بانهيار عصبي أو بسبب العزلة عن الناس، فرفقا بهم فهم لم يختاروا أقدارهم.

تمت بحمد الله